الحرية وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة

في المنظور القرآني

د. رمضان خميس زكي الغريب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك في جامعة الأزهر

وكلية الشريعة جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله رب العالمين, وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين,محمد(ﷺ) وآله وصحبه والتابعين, اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا, ونلوذ بحولك وطولك وقوتك, فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين, اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأعمالنا وحركاتنا وسكناتنا فيك لك خالصة؛ إنك على كل شيء قدير, اللهم إنا نسألك إيمانا لا يرتد, ونعيما لا ينفد, وقرة عين لا تنقطع, ونسألك مرافقة النبيين في الجنة...

أما بعد فإن الحرية من أعظم ما امتن الله (تعالى) به على عباده وخلقه, وهي قيمة كبرى من قيم المشروع النهضوي, وأساس من أسس الشهود الحضاري للإنسانية عامة, والأمة الإسلامية خاصة, وهي مقصد من مقاصد التشريع, تنبه إليه علماء المقاصد الشرعية لخطره, وعظيم أثره, وتميز فيه المنهاج القرآني تنبيهاً وعرضا, وتناولا ورصدا, حتى في أدق المسارات, وأخطر القضايا: قضايا التوحيد والإيمان, وعلاقة الإنسان بالرحمن, وتنوعت عناية القرآن بها, من حيث طرح القضايا, وتلوين العبارة, وتنويع المفردات, وتعدد المجالات.

وأمتنا اليوم - في تلك الدورة الحضارية التي تعيشها-في أمس مراحلها إلى ضبط المفاهيم, وبيان الحدود, وإيضاح العلاقة بين المقدمات والنتائج, والمعطيات والبراهين, والمصطلحات وضوابطها في ضوء مرجعيتنا ومصادرنا, **حتى يكون الوعي أساسا للسعي, والتوصيف خطوة إلى التوظيف, والإدراك مقدمة الحراك, والفهم معينا على التسخير.**

وأتصور بداية أن يكون هيكل البحث على النحو الآتي:

أولا أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تبدو أهمية البحث من أهمية القضية التي يدور حولها, والظرف التاريخي الذي يحتم الحديث عنها, ونحن نعيش في مرحلة من المراحل الحاسمة في عمر أمتنا وعروبتنا وديننا, ونحتاج إلى تبين مواطئ أقدامنا؛ فالتوصيف نصف التوظيف, والتشخيص جزء من العلاج, ويمكن أن نتفهم أهمية الموضوع من مدى حاجتنا في تلك المرحلة إلى استشراف نموذج للنهضة الحقيقية نبني عليه انطلاقتنا المعاصرة.

كما تبدو أسباب الاختيار في:

1- أن أمتنا تعيش دورة حضارية جديدة, وهي في حاجة ماسة إلى تبين نموذج للنهضة تبني على أساسه, وتنسج على منواله, وتتعرف على أسبابه, للتخلي عن معوقاته, وقد حفل القرآن الكريم بمفردات الشهود الحضاري للأمة المسلمة, وبيانها, وغني عن البيان أن الحرية عامة,وحرية الفرد خاصة سبب من أسباب النهضة والشهود الحضاري, وعماد قيامه بل أساس وجوده.

2- الرغبة في المشاركة في صناعة شيء في هذه المرحلة على بينة من كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

3- التأكيد الدائم أن أساس النهضة والحضارة الحقيقية والكاملة لا ينفصل عن تصورات القرآن, ومفاهيم القرآن, وعطاءات القرآن, وأنه صنع من أمة أمية قيادة فكرية وعلمية وروحية في فترة وجيزة بهرت العالم, وأذهلت البشرية, حتى عد بعض المستشرقين نجاح الصحابة(وهم غرس القرآن وبناؤه), والذي عبر عنه بعض الكاتبين بالجيل القرآني الفريد([1]), والذي عد بعضهم مهمة ذلك الجيل في إقامة حضارة عربية لونا من ألوان الإعجاز في حياة النبي (ﷺ).

ثانيا مشكلة البحث

تدور مشكلة البحث حول علاقة الحرية بالنهضة والشهود الحضاري وأثرها فيهما, وجودا وعدما.

ثالثا أسئلة البحث

تدور أسئلة البحث حول سؤال رئيس هو: ما علاقة الحرية بالشهود الحضاري في المنظور القرآني؟ ويتفرع عن هذا السؤال ستة أسئلة هي:

1- ما مفهوم الحرية وما مفردات القرآن الكريم في التعبير عنها؟

2- ما مفهوم الشهود الحضاري ؟وما منهجية القرآن الكريم في البيان عنه.

3- ما منهجية القرآن الكريم في بيان الحرية وما العلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة؟.

4- هل توجد نماذج من إعلاء الحرية في تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ؟

[1] - العلامة المفسر سيد قطب في كتبه: في ظلال القرآن, ومعالم في الطريق, وغيرها.

5- ما أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري للأمة المسلمة؟.

6- ما أثر فقدان الحرية الفردية على مشروعات النهضة؟.

رابعا أهداف الدراسة:

يمكن أن نحصر أهداف الدراسة في الإجابة على تلك الأسئلة, وهي:

1- بيان مفهوم الحرية ورصد مفردات القرآن الكريم في التعبير عنها.

2- بيان مفهوم الشهود الحضاري ومنهجية القرآن الكريم في البيان عنه.

3- رصد منهجية القرآن الكريم في بيان الحرية وبيان العلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

4- التركيز على بعض النماذج من إعلاء قيمة الحرية في تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ؟

5- إبراز أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري للأمة المسلمة.

6- إبراز أثر فقدان الحرية على مشروعات النهضة, والشهود الحضاري للأمة المسلمة.

خامساً: حدود الدراسة:

تقتصر الدراسة على حصر الآيات التي تتناول قضية الحرية وعلاقتها بالنهضة, وأثر الحرية في قيام النهضة على أسس سليمة قويمة, قوية متينة, وتمضي على المنهج الموضوعي **الوسيط** الذي يسعى إلى حصر الآيات الجامعة للصورة القرآنية الشاملة عن قضية: **(الحرية وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة في المنظور القرآني)** الكريم, والاستعانة على فهم ذلك بالتفاسير المعتمدة, والعلوم الإنسانية المتاحة, وما أفرزه علم الاجتماع الإسلامي حسب الطاقة البشرية.

سادساً: منهج البحث وأداته:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي والاستقرائي والاستنباطي, حسب طبيعة التناول, وأداته جمع الآيات ذات الصلة بالموضوع, وتحليلها, واستنباط الخصائص, والسمات, والأسباب, والشروط, والأهداف والضوابط, والآثار المتعلقة بالحرية, والعلاقة بين الحرية والحضارة, والحرية والشهود الحضاري للأمة المسلمة,ونماذج تطبيقية من تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم اعتمادا على تلك الركيزة الإنسانية في قيام الحضارات وانتصارها,أو عدمها واندثارها, إفادة مما كتبه علماء التفسير وعلماء الاجتماع والحضارة والفكر الإنساني فيما يتعلق بتلك القضية, وما يدعم ذلك

من ومضات السنة النبوية المطهرة, وما يخدم هدف البحث من الدراسات الإنسانية, دون الإفراط في الشروح؛ حرصا على عدم خروج البحث عن مساره.

وحرصت على جمع الآيات المتعلقة بالموضوع, وحرصت على أن تكون العناصر المعنونة من صميم الآيات القرآنية؛ جريا على المعتمد من المناهج في هذا اللون من ألوان التفسير الموضوعي([1]), أما في الشرح والاستنباط, فأفيد من كتب التفسير في كل المدارس من مأثور ورأي, فأمر على مدارس متعددة وألوان متباينة, زمانا, ومكانا,واتجاها, ومنهاجا, وفكرا, ومن السنة, وهي الشارح الُمبين والُمَبِّين لآيات القرآن, وما قدمه الجهد البشري من دراسات إنسانية أو عربية في هذا الصدد, حسب الطاقة والوسع, وحسب طبيعة الدراسة.

هيكل البحث:

وشمل البحث مقدمة, وستة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: مفهوم الحرية ومفردات القرآن الكريم في التعبير عنها.

المبحث الثاني: مفهوم الشهود الحضاري للأمة المسلمة وبيان القرآن الكريم في التعبير عنه.

المبحث الثالث: منهجية القرآن الكريم في بيان الحرية وغرسها في نفس الإنسان, والعلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

المبحث الرابع: نماذج من إعلاء الحرية في تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم.
المبحث الخامس: أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري للأمة المسلمة.

المبحث السادس: أثر فقدان الحرية على النهضة والشهود الحضاري.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المراجع والمصادر.

فهرس الموضوعات.

[1] - انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي, لأستاذنا د. عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية, ط الثانية,1411هـ,1991م, ص 60,59.

المبحث الأول

مفهوم الحرية ومفردات القرآن الكريم في التعبير عنها

مادة الحرية ودلالتها اللغوية:

دارت مادة (الحاء والراء) في اللغة على عدد من الدلالات والمعاني, يتناسب مع مقصود البحث منها هنا-وهو الحرية- التي هي مقصد من مقاصد الشريعة, والتي أدرجها كثير من الفقهاء ضمن مقاصد الإسلام, عدد من الدلالات, منها أنها: نقيض العبودية, والخيار ,والأفضلية, والعتيق, بمعنى القديم, والفخر, والوسط, والطيب, وغير المخلوط بغيره,والفعل الحسن, ويوصف بها: الكريمة من النساء, والكثيرة الماء من السحاب, والجيد من البقل والفاكهة, كما يرد الوصف بها للكتابة القائمة المثبتة,وما صلح من السقط, وتدل على الإثبات, والجيد من كل شيء, ويوصف بها خد الرجل ووجنته, والمنذور من البشر, فالمحرر هو النذير من الرجال, والمحررة هي النذيرة من النساء, كما ورد في وصف مريم (عليها السلام) على لسان امرأة عمران.. كما يوصف بها الرجل الخالص من قومه, والمطلق من الحبس..

يقول صاحب اللسان: (الحُرُّ بالضم نقيض العبد والجمع أَحْرَارٌ وحِرارٌ ....

والحُرُّ من الناس: أَخيارهم وأَفاضلهم, وحُرِّيَّةُ العرب أَشرافهم .... ويقال هو من حُرِّيَةِ قومه, أَي: من خالصهم, والحُرُّ من كل شيء أَعْتَقُه وفرس حُرٌّ عَتِيقٌ وحُرُّ الفاكهةِ خِيارُها .... والحُرُّ كلُّ شيءٍ فاخِرٍ من شِعْرٍ أَو غيره وحُرُّ كل أَرض وسَطُها وأَطيبها والحُرَّةُ والحُرُّ الطين الطَّيِّبُ ..

وحُرُّ الرمل وحُرُّ الدار وسطها وخيرها, .. وطينٌ حُرٌّ: لا رمل فيه ورملة حُرَّة لا طين فيها والجمع حَرائِرُ, والحُرُّ الفعل الحسن يقال: ما هذا منك بِحُرٍّ أَي بِحَسَنٍ ولا جميل,والحُرَّةُ الكريمة من النساء وسحابةٌ حُرَّةٌ بِكْرٌ يصفها بكثرة المطر الجوهري الحُرَّةُ الكريمة يقال ناقة حُرَّةٌ وسحابة حُرَّة أَي كثيرة المطر قال عنترة

جادَتْ عليها كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كلَّ قَرارَةٍ كالدِّرْهَمِ

أَراد كل سحابة غزيرة المطر كريمة وحُرُّ البَقْلِ والفاكهة والطين جَيِّدُها وحُرُّ الوجه ما أَقبل عليك منه, وتحرير الكتابة إِقامة حروفها وإِصلاح السَّقَطِ وتَحْرِيرُ الحساب إِثباته مستوياً)([1])

[1] - لسان العرب: (4 / 177), تهذيب اللغة: (1 / 435, 346).

وقال الليث: المحرَّر: النذيرة. وكانت بنو إسرائيل إذا ولد لأحدهم ولد ربما حررَّه أي: جعله نذيرة في خدمة الكنيسة ما عاش، لا يسعه في دينهم غيرُ ذلك.)([1]) وأورد هنا قول امرأة عمران: (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا), آل عمران: 35.

ولعلي هنا ألمح معنى يلفت النظر, ويسترعي الانتباه, وهو أن الحرية الحقيقية لا تكون إلا في عبودية العبد لله, وانعتاقه من كل ما سواه,كما قال-صادقا- بعض العلماء,(لا مناص من أن نحصن حريتنا بممارسة عبوديتنا الحقيقة لله عزّ وجل إن أردنا لأنفسنا الحرية حقاً . وهيهات أن يذوق طعم الحرية الصافية من تاه عن سيده ومولاه، ثم هام على وجهه في صحراء التأله والبغي والعدوان ، أو وقع في أسر التبعية وذل الاستعباد. وهيهات أن يعرف الإذلال والاستعباد [(2)].) (فما كان الإنسان ليصل إلى حريته لولا نزول الوحي ...وأن الإنسان لم يخلق حراً، وإنما ليكون حراً "بقدر خضوعه لشرع الله، إن الحرية كدح ونضال في طريق عبودية الله وليست انطلاقا حيوانياً .ولقد تعجب الأستاذ الفاسي كيف أن علماء الإسلام لم يتفطنوا في آية البينة (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة), 13. إلى هذا المعنى اللطيف :أنه لا سبيل إلى الانفكاك والتحرر إلا بمنهج العبودية لله، منهج التكاليف، الأمر الذي يجعل الحرية خُلُقاً ذاتياً تتجلى آثاره في أعمال الإنسان الصادرة عن شعوره بالتكليف .إن الإنسان الجدير بصفة الحر هو المؤمن بالله ..وأن التكليف هو أساس الحرية وعلامتها([3]).
وسيأتي بيان ذلك بجلاء عند الحديث عن ضوابط الحرية وحدودها.
وقد ذكر الراغب أن الحرية نوعان: حرية الأصل, أو براءة الذمة, وحرية من الصفات الذميمة, فقال:

(والحرية ضربان: الأول من لم يجر عليه حكم الشيء نحو: (الحر بالحر) والثاني من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضاد ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار " وقول الشاعر:

ورق ذوى الأطماع رق مخلد * وقيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرق.

---

[1] - تهذيب اللغة للأزهري: (1 / 436).

[2] أبحاث في القمة / للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – رحمه الله-بتصرف ؛ وانظر بحث مناهج الحرية في الحضارة الإسلامية, د. محمد عبد اللطيف صالح الفرفور بحث مقدم إلى منظمة المؤتمر الإسلامي الدورة التاسعة عشرة .

[3] - الحريات العامة في الإسلام, للشيخ راشد الغنوشي: 28, وانظر مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي, ص: 90.

والتحرير: جعل الإنسان حرا، فمن الأول: (فتحرير رقبة مؤمنة) ومن الثاني: (إني نذرت لك ما في بطني محررا) قيل: هو أنه جعل ولده بحيث لا ينتفع به الانتفاع الدنيوي المذكور في قوله (عز وجل): (بنين وحفدة), بل جعله مخلصا للعبادة، ولهذا قال الشعبي: معناه مخلصا. وقال مجاهد: خادما للبيعة، وقال جعفر: معتقا من أمر الدنيا، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد وحررت القوم أطلقتهم وأعتقتهم عن أسر الحبس)([1])

وإذا كنا قد تعرفنا على دلالة الحرية في اللسان العربي فلنعطف على القرآن نقتبس من سناه, ونستضيء بضياه, في التعرف على تلك المفردة التي عُني بها وبتحريرها أي عناية, واهتم بها -كما سيبين- أي اهتمام.

الحرية في القرآن الكريم

المتأمل لهذه المفردة في القرآن الكريم, يجد أنها دارت على لفظ: (تحرير, محررا, حر), عدا المواطن التي ورد فيها حديث عن الحرية من حيث قيمتها وأهميتها, وحاجة البشرية في حياتهم إليها, فورد لفظ (تحرير) ست مرات, ولفظ (محررا) مرة, ولفظ (الحر) مرتين([2]),وذلك في قوله (تعالى): (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ): النساء/92, (وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ): النساء:92 (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ): النساء/92 , (وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ): النساء/92 (أو تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ): المائدة/89 ,(فتحرير رقبة): المجادلة/3.وقوله: إني نذرت لك ما في بطني محرر), آل عمران: 35. وقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ), البقرة: (178).

ومن تتبع مفردة الحرية ومشتقاتها في القرآن الكريم نلاحظ الآتي:
1-أن المفردة وردت في القرآن المكي والمدني بما يشعر بأن معناها مقصود ومراد في كل مراحل الدعوة, وذلك يدل على عناية الشارع بها واهتمامه بترسيخها, على مدار الدعوة والدولة على حد سواء, بل لعل سببا من أسباب جعل النبوة في العرب, واختيارهم ليكونوا حملة الرسالة, ومبلغي الأمانة ما طبعوا عليه من العزة والأنفة, وحب الحرية الفطرية, حتى فضلوا حياة البادية على الحاضرة؛ لما في الثانية من انطلاقة وبعد عن قيد القوانين وحبس الحضارة كما يظنون.
(فقد امتد بهم حب الاستقلال الشخصي والتجرد عن كل ما فيه ضغط وحجر إلى إبايتهم وتعاصيهم عن الدخول تحت نظام ملكي يرد شكيمتهم, ويكبح من جماحهم,كما قال عمرو بن كلثوم:

---

[1] - مفردات غريب القرآن للأصفهاني:(1 / 111), بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز:(1/ 652).

[2] - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, لمحمد فؤاد عبد الباقي: مادة حرر, ص: 250.

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا([1])

ومن أجل ذلك كانوا لا يألفون الحواضر, ويفرون من الإقامة داخلها, فرار الصحيح من المجذوم, يوجسون في أنفسهم أنها ذريعة للمسكنة, وسبيل للرغم من أنف العزة, وجرى على ذلك أبو العلاء المعري حين قال:

الموقدون بنجدٍ نارَ باديةٍ لا يحضرون, وفقدُ العز في الحضر

[1] - انظر ديوانه جمع تحقيق وشرح د إميل بديع يعقب, ط: دار الكتاب العربي, بيروت, ط: أولى, 1411هـ,1991م, :ص 89, والبيت من معلقته المشهورة.

وقال ابن الرومي:

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه من نسل شيبان بين الضال والسلم([1])

وحتى في شعر الصعاليك تجد ذلك المعنى كما قال الشنفرى في لامية العرب:

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول([2])

2-أن القرآن جعل الحرية مقابل الموت؛ فكأن الحر حي, وغيره ميت, كما سيأتي توضيح ذلك.

مرادفات الحرية في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم مفردات تدل على معنى الحرية, وإن لم يستخدم فيها لفظ الحرية, وذلك مثل: فك الرقبة في قوله (تعالى): (فك رقبة),و نفي الإكراه,مثل: (لا إكراه في الدين) البقرة: والتخيير, مثل : (لكم دينكم ولي دين),الكافرون:6. ومثل: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر),الكهف:29.

وزادت الآيات التي تتناول الحرية على مائة وخمسين آية([3])

مقابلات الحرية في القرآن الكريم:

و حتى تتضح دلالات المفردة التي نعالجها, (الحرية) ينبغي الوقوف على مقابلاتها ومقارباتها في القرآن الكريم, فقد ورد في القرآن الكريم مفردات تدل على عكس الحرية في مواطن متعددة منها:

1- الطغيان
2- الإكراه
3- الإفساد في الأرض
4- الاستخفاف بالقوم
5- الاستكبار في الأرض
6- العلو
7- الظلم

وكلها تشترك في قيد الإنسان والسيطرة عليه, سواء في تجاوز الحد معه, أو في الغلبة عليه وتقليل فرص اختياره, أو في إفساد الأرض أمامه فلا ينتفع بها, أو الاستخفاف بقيمته في الحياة, أو الكبر عليه, والعلو على مكانته التي خلقه الله عليها, أو ظلمه بأي صورة من صور الظلم.

وقد وردت تلك المفردات في القرآن الكريم على النحو الآتي:

1- الطغيان: وقد وردت مادة الطغيان وتقلباتها في القرآن الكريم تسعا وثلاثين مرة([1]),موزعة على التصريفات الآتية: طغى, طغوا,

---

[1] - الحرية في الإسلام, للعلامة محمد الخضر حسين, ص:13, دار الاعتصام بدون تاريخ.

[2] - انظر ديوان الشنفرى, عمرو بن مالك, ت: د اميل بديع يعقوب,ص: 60, ط:دار الكتاب العربي بيروت لبنان,ط: الثانية,1996/1417.

[3] - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة: حر , شاء,أراد.

تطغـوا, يطغـى, أطغيتـه, طـاغوت, أطغـى, بالطاغيـة, بطغواهـا, طغيانا, طغيانهم, الطاغوت.
و مـن تتبـع المـادة, وتأملهـا فـي القـرآن الكـريم يمكـن أن نسـتخلص الآتي:

- أن المـادة وردت فـي القـرآن المكـي والمـدني, وأن ورودهـا فـي القـرآن النـازل فـي مكـة كـان أكثـر فـوردت فـي السـور المكيـة 28 مـرة, وفـي السـور المدنيـة 11 مـرة,ونلمح مـن ذلـك مـدى عنايـة القـرآن الكـريم بالمـادة علـى مسـتوى العصـرين المبـاركين: عصـر الـدعوة وعصـر الدولـة, وإن كـان عصـر الـدعوة قـد زاد فيـه عـدد مـرات الـورود بنسـبة تقتـرب مـن ثلاثـة أضـعاف, وهـذا يشـي بـأن الفتـرة الأولـى كـان مناسـبا الحـديث عنهـا بهـذه الكثافـة والحضـور, فهـي فتـرة بنـاء الإنسـان الـذي يهيـأ لإقامـة الدولـة بعـد أن اسـتقرت الـدعوة, ولفـت نظـره إلـى تلـك المفـردة, وهـذا المفهـوم الـذي يـؤثر فـي إقامـة الأمـم وانهيارهـا, فقـد مضـت سـنة الله (تعـالى) أن الدولـة العادلـة تبقـى وإن كانـت كـافرة, وأن الدولـة الطاغيـة الظالمـة تنهـار ولـو كانـت مسـلمة, وأيـد التـاريخ المسـموع والواقـع المنظـور مـا سجله الكتاب المسطور, فتبارك الله أحكم العادلين.
- كمـا يلاحـظ أن المـادة تقلبـت فـي مشـتقات متعـددة بـين المصـدر, واسـم الفاعـل, والماضـي, والمضـارع, ولـم يـرد فيهـا بداهـة الأمـر, وهـذا يشـي بـأن الطغيـان ممتـد فـي القـديم والحـديث, ولا يمكـن أن يكون مأمورا به, وهو من مفردات الصراع بين الحق والباطل.
- أنـه ورد مـع المفـرد والجمع,وهـذا يـدل علـى أن الطغيـان يمكـن أن يكـون مـن فـرد ويمكـن أن يكـون مـن مجموعـة أو دولـة,أو نحوهمـا, كمـا كـان يقـول بعـض شـيوخنا: إن هنـاك قـوارين وفـراعين كثيـرة([2]), فلـيس بالضـرورة أن يكـون الطغيـان علـى مسـتوى واحـد, بل يمكن أن يكون من أفراد أو مجموعات أو دول.
- أن الطغيـان ورد مضـافا إلـى البشـر خمـس مـرات تقريبـا, بمـا يـدل علـى أن سـبب الطغيـان ومصـدره هـو الإنسـان ورغباتـه التـي لا تحد, ونزواته التي لا تتوقف.
- كما يلاحظ أن المادة وردت في الجانب السياسي, والجانب الاجتماعي, والجانب الاقتصادي, بما يشير إلى أن الطغيان إذا وجد يمكن أن يتعدى ضرره وخطره إلى أكثر من مكان ومجال.

---

1 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, لمحمد فؤاد عبد الباقي: مادة طغى, ص 541, 542.

[2] - هو شيخنا العلامة الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله-وكثيرا ما كان يرددها في مواطن متعددة.

- كما يلاحظ أن المادة وردت في جانب الأفراد وجانب الأمم بما أثر على نهضة تلك الأمم وأفشل مسيرتها وحضارتها المادية التي كانت باذخة راسخة.

2- الإكراه,وقد وردت المادة في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة([1]),ما يخص مجالنا منها 16 مرة.

ويمكن أن نرصد تلك الملامح التي تعيننا على تصور ورود المادة في القرآن الكريم على النحو الآتي:

- أن المادة وردت بألفاظ: أكرهتنا, تُكره, تُكرهوا, يكرههن, أُكره, إكراه, مكرها.ويلاحظ أن المادة وردت بصيغ الماضي والمضارع, والمصدر, كما وردت بصيغة المبني للمفعول, وهذا يدل على أن المادة في الماضي والحاضر, وأنها موجودة مستمرة.
- أن المادة وردت في القرآن النازل في مكة خمس مرات, وفي القرآن النازل في المدينة إحدى عشرة مرة, وهذا يشير إلى أن عناية القرآن بالمادة استمرت في العهدين المكي والمدني وإن زادت مرات ورودها في العهد المدني.
- أن المادة يلاحظ فيها الجانب الفردي غالبا ففاعل الإكراه في أغلب المادة فرد, وهذا يشير إلى أنه عمل يغلب فيه الفردية أكثر.
- أن المادة وردت في الجانب الاعتقادي, والجانب الاقتصادي, والجانب السياسي, وهذا يشير إلى تعدي هذا الفعل إلى كل تلك الجوانب.

3- الإفساد في الأرض, وقد وردت المادة في القرآن خمسين مرة([2]), موزعة على العهدين المكي والمدني, فوردت في العهد المكي إحدى وثلاثين مرة, وفي العهد المدني تسع عشرة مرة, ويمكن أن نلاحظ -من خلال رصد المادة في القرآن الكريم الآتي:

- أن ورود المادة كان بصيغ: الماضي, والمضارع, والمصدر, واسم الفاعل.
- أن المادة وردت في أغلبها مسندة إلى المجموع لا إلى الفرد, حتى في الموضع التي وردت فيه مسندة إلى الفرد وردت في صورة سننية قاعدية تنطبق على أكثر من فرد, بما يشير إلى أن الفساد يكون ضرره في إهارة الحضارة أكثر عندما يكون جماعيا, وأن الفساد الفردي لا يدوم وحده, بل يسعى لأن يجعل المجتمع كله يصبغ بالفساد حتى يجد لنفسه المناخ الملائم لممارسة غيه وبغيه.
- أن المادة شملت الجانب السياسي, والاجتماعي, والأخلاقي, والاقتصادي.

---

[1] - المعجم المفهرس, مادة كره ص: 766, 767.

[2] - السابق: مادة فسد, ص: 658, 659.

- كما يلاحظ أن في هذه المادة سنة من سنن الله (تعالى) وهي أن الله لا يصلح عمل المفسدين, وأن الله لا يسوي بينهم وبين المصلحين.
- كما يلاحظ بوضوح أن الفساد مرتبط بالأرض, فلا تكاد تخلو آية مما وردت فيها تلك المادة من ورود لفظة الأرض بصورة لافتة للنظر.
- كما يلاحظ غلبة الجانب السياسي على المادة ودورانه معها.
- كما يلاحظ غلبة النهي عن الفساد في الأرض بصورة لافتة للنظر.

4- الاستخفاف بالقوم, وقد وردت بالمعنى الذي يتناسب مع أخواتها مرة واحدة في حق فرعون واستخفافه بقومه([1]),ووردت بالماضي,والآية مدنية ,وهي في الجانب السياسي,والاجتماعي.

5- الاستكبار في الأرض, وقد وردت مادته التي تتناسب مع ما نتتبعه من مقابلات الحرية ثمان وخمسين مرة, تسعا وأربعين مرة منها في العهد المكي, وتسعا في العهد المدني([2]).

- و يلاحظ أن المادة وردت في العهدين المكي والمدني كما سبق, وإن كان ورودها في العهد المكي خمسة أضعاف ورودها في العهد المدني تقريبا.
- كما يلاحظ ورودها بصيغ الماضي والمضارع, والمصدر, واسم الفاعل.
- كما يلاحظ ورودها في حق الأفراد وحق المجموع, لكن يغلب ورودها في حق المجموع.
- كما يلاحظ ورودها في الجانب الاجتماعي, والاعتقادي,

6- العلو: وردت المادة في القرآن الكريم مرات عديدة وما يتناسب مع مقصود البحث منها عشر مرات([3]), كلها في العهد المكي, وقد وردت بصيغ: لتعلن, علوا, علا, تعلوا, استعلى, لعال, ويمكن أن نلاحظ فيها الآتي:

- أنها وردت على صورة الماضي والمضارع والمصدر, واسم الفاعل.
- أنها وردت في الجانب السياسي, والاعتقادي, ولكن يغلب عليها الورود في الجانب السياسي.
- كما يغلب عليها الارتباط بلفظة الأرض.
- كما يغلب عليها ورودها في جانب الحاكم المستبد الذي أعطى القرآن له مثالا تاريخيا صارخا ممثلا في فرعون.

---

[1] - المعجم المفهرس, مادة : خف, ص : 299.

[2] - السابق,مادة كبر,ص: 747, 748.

[3] - المعجم المفهرس: مادة علو, ص: 611, 612.

7- الظلم: وقد وردت المادة في القرآن الكريم بكثرة بلغت مائتين وتسعين مرة([1]), ووردت بصيغ: ظلم, ظلموا, تظلم, ظلما, ظالم, أظلم, ظلوم, ظلام. ويلاحظ على المادة الآتي:

- أن المادة وردت بصيغ الماضي والمضارع, واسم الفاعل, واسم المفعول, وصيغة المبالغة.

ولبيان معنى الحرية ودلالاتها نقف عَجِلين على تلك الألفاظ المقاربة في القرآن الكريم, فمكان بسطها النوع البسيط من التفسير الموضوعي وقد اخترت في تلك القضية المضي على المنهج الوسيط كما سبق في المقدمة.

الألفاظ المقاربة

1 -فك الرقبة, وقد وردت المادة في القرآن الكريم ست مرات([2]), ويلاحظ على المادة الكريمة ما يأتي:

- أن المادة وردت في السور المكية والسور المدنية
- أن ورودها في السور المدنية كان أكثر, فوردت خمس مرات في العهد المدني, ومرة واحدة في العهد المكي.
- أنها ربطت بالفك وبالتحرير
- أنها وردت مضافة إلى لفظ مؤمنة, ووردت غير مضافة, بما يشير إلى أن فك الرقبة أو تحريرها وارد على المؤمن والكافر, وفي ذلك إشارة واضحة إلى قيمة الحرية و تشوق الإسلام إليها لكل البشرية مؤمنهم وكافرهم.

2- **لا إكراه**: وقد ورد نفي الإكراه عن الإنسان في القرآن بلفظه مرة واحدة في سورة البقرة([3])

3-**طلاقة الاختيار**: وقد ورد في القرآن الكريم من الآيات الكريمة ما يدل على طلاقة اختيار الإنسان, كقوله (تعالى): (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر), الكهف: 29.,وقوله (تعالى): (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا): الإنسان: 3.وقوله (تعالى): (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا), المدثر: 19والإنسان :29. وقوله: (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا), النبأ: (39).

كما وردت مادة الإرادة التي تخص مجال بحثنا سبعا وثمانين مرة([4]) في القرآن الكريم, موزعة على العهدين المكي والمدني, وقد وردت بصيغ الماضي والمضارع, ومسندة إلى المفرد والمثنى والجمع, وشملت الجانب الاعتقادي, والسياسي, والاجتماعي.

تعريف الحرية

---

[1] - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة ظلم, ص: 551-557.

[2] - السابق,مادة رقبة, ص: 411.

[3] - المعجم المفهرس, ص 767.

[4] - السابق, مادة: رود, ص: 515-517.

وإذا أردنا أن نتتبع تعاريف الحرية في كتابات المسلمين وجدنا كما هائلا من التعريفات لها , يبرز مدى عناية الباحثين والمفكرين بهذه القيمة الإنسانية الأصيلة,كما يبرز مدى ما عانته البشرية في سبيل ترسيخها يظهر ذلك من خلال حرص المعرفين لها على وضع حدود تقي البشرية مما عانته من الأكاسرة والقياصرة,ومن سار على نهجهم,ونسج على منوالهم, وكل يعرف من زاوية معينة,إشارة أيضا إلى جانب اهتمام كل منهم, ولعل أبرز تلك التعاريف ما يأتي:

1-فالشريف الجرجاني يعرف الحرية بتعريف أهل التصوف والسلوك بقوله: (الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة: الخروج عن رق الكائنات, وقطع جميع العلائق والأغيار, وهي مراتب: حرية العامة: عن رق الشهوات, وحرية الخاصة : عن رق المرادات, لفناء إرادتهم في إرادة الحق,وحرية خاصة الخاصة: عن رق الرسوم والآثار, لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار([1]).

ونلاحظ هنا دوران معنى الحرية في التعريف على الخلوص, والانعتاق, سواء كان ذلك من الشهوات, أو الرغبات والمرادات,أو الخلوص عن الخلق والتوجه كليا إلى الخالق, فتعريفه يدور حول الخلوص, وهو واحد من المعاني الأساسية لمعنى الحرية.

2-وعرفها التهانوي بقوله: الحر لغة الخلوص,وشرعا: خلوص حكمي يظهر في الآدمي لانقطاع حق الغير عنه, والحرية مثله,...والحرية عند السالكين: انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى بالكلية,إذا فالعبد يصل إلى مقام الحرية حينما لا يبقى فيه غرض دنيوي, وما ذلك إلا لأنك أنت مقيد لوقتك وهو مقيد بالروح([2])

وكما هو واضح تأثر التعريف بالجانب الصوفي, وهو أيضا قائم على الخلوص وهو من دلالات اللفظ, لكن ليس كل دلالاته, وعلى الرغم من تألق هذا الاتجاه وحاجتنا إليه في المصطلحات والتعاريف إلا أننا ما زلنا نفتقد جانب النظر إلى الحس النهضوي الشهودي في تلك الاتجاهات.

3- ويرى العلامة الطاهر بن عاشور أن لفظ الحرية (جاء في كلام العرب مطلقا على معنيين: أحدهما ناشئ عن الآخر,المعنى الأول: ضد العبودية,وهي أن يكون تصرف الشخص العاقل في شؤونه بالأصالة تصرفا غير متوقف على رضا أحد آخر,المعنى الثاني: ناشئ عن الأول, بطريقة مجازية, وهو تمكن الشخص من التصرف في نفسه وشؤونه كما يشاء دون معارض)([3]).

والعلامة ابن عاشور في تعريفه هذا توسع في دلالة اللفظ, عن التعريفات السابقة, فهو يميل به نحو العمل من التصرف والتمكن ويبدو أثر المقاصد واضحا في

---

[1] - التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الإبياري, دار الكتاب العربي بيروت,ط:أولى, 1405هـ, 166/1.

[2] - موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون . محمد علي التهانوي, تقديم وإشراف رفيق العجم, مكتبة لبنان ناشرون,ط: أولى, 1996,ص: 174,مادة حر.

[3] - مقاصد الشريعة الإسلامية,ت: محمد الطاهر الميساوي, ط: دار النفائس , الأردن,ط: الثانية, 1421هـ , 2001م, 390.

تعريف الطاهر واضحا, ويشير إلى التركيبة المقاصدية والفقهية التي تميز بها ابن عاشور بالإضافة إلى تألقه المعروف في التفسير.

4-ويرى بعض الباحثين تعريفا هو أقرب إلى المراد ,تبدو فيه قدرة الفرد على اجتلاب حقوقه ,وأداء واجباته, واختياره ما فيه منفعته, وبعده عن ما فيه مفسدته, فيعرفها بقوله: هي المكنة العامة التي يقررها الشارع للأفراد, بحيث تجعلهم قادرين على أداء واجباتهم, واستيفاء حقوقهم, واختيار ما يجلب المنفعة, ويدرأ المفسدة دون إلحاق ضرر بالآخرين)([1]).

ويلاحظ في هذا التعريف أيضا ضبطه للحرية ضبطا مفيدا من ناحيتين, أولاهما: ارتباطها بالشارع, لتكتسب من ذلك كونها واجبا وليست حقا فقط, وهذه إضافة جيدة لدلالة التعريف, ثانيهما: ضبطها بعدم إلحاق الضرر بالآخرين,وفي ذلك بيان جيد لضوابط الحرية, وأنها حرية مسئولة, قادرة على البناء دون التعدي على حقوق الآخر.

5-كما عرفها العلامة محمد الخضر حسين تعريفا يربط بين الجانب اللغوي والجانب الاصطلاحي, ووضع قلمه الحر على موطن الداء وبيت الدواء, حيث يتتبع دلالاتها في العربية وتعاريف أهل السلوك لها ثم ينتقل إلى بيت القصيد وهو معنى الاستقلال, والخلوص والقدرة على اتخاذ موقف ما في لحظة من دون ضغط أو إكراه, فيقول بعد مقدمة يسيرة عن بعض دلالاتها اللغوية: (وردت الحرية صفة للنفس في كثير من أشعار العرب كما قال سحيم:

إن كنت عبدا فنفسي حرة كرما أو أسود اللون إني أبيض الخلق0([2])

وجاء لمعنى استقلال الإرادة, وعدم الخضوع لسلطان الهوى: كما قالوا:

وترانا يوم الكريهة أحرا را وفي السلم للغواني عبيدا

وعليه بنى الصوفية اصطلاحهم في إطلاق اسم الحر على من خلع عن نفسه أمارة الشهوات,ومزق سلطانها بسيوف المخالفة شر ممزق, قال الإمام الجنيد: لو صحت الصلاة بغير القرآن لصحت بقول الشاعر:

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاي طلعة حر

ثم يعطف -رحمه الله- على الهدف منها في حياتنا المعاصرة, فيقول: ينصرف هذا اللقب الشريف في مجاري خطابنا اليوم إلى معنى يقارب معنى استقلال الإرادة, ويشابه معنى العتق,الذي هو فك الرقبة من الاسترقاق, وهو أن تعيش الأمة عيشة راضية, تحت ظل ثابت من الأمن, على قرار مكين من الاطمئنان)([3])

7-و ينحو العلامة أبو زهرة رحمه الله بدلالة الكلمة منحى نفسيا بديعا يربط بين دلالتها اللغوية ومقصودها وجوهرها وينسج بإحكام-كعادته- من معناها اللغوي

---

[1] - الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية, د. رحيل محمد غرايبة, دار المنار للنشر والتوزيع,ط: أولى, 1421هـ , 2001م, ص: 41.

[2] - انظر ديوان سحيم: عبد بني الحسحاس,ت: عبد العزيز الميمني, ص: 55 ط: دار الكتب المصرية, 1369هـ/ 1950م.

[3] - الحرية في الإسلام, محمد الخضر حسين, ص: 16 ,17 بتصرف يسير.

معنى يشمل انتصار الإنسان على نفسه وسيادته عليها أولا, وترفعه عن الدنايا والوضائع ثانيا, ويحد بينه وبين الاعتداء على غيره ثالثا, بصورة متماسكة بديعة فيرى أن الحر هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية, الذي يعلو عن سفاسف الأمور, ويتجه إلى معاليها ويضبط نفسه,فلا تنطلق أهواؤه,ولا يكون عبدا لشهوة معينة,بل يكون سيد نفسه,فالحر يبتدئ بالسيادة على نفسه,وإذا ساد نفسه وانضبطت أهواؤه وأحاسيسه أصبح لا يذل ولا يهون,وبذلك يكون حرا بلا ريب, وإن هذه السيادة النفسية التي يتسم بها الشخص الحر وتكون هي العنصر الأول في تكوين معنى الحرية في نفسه- قد دعا إليها الإسلام في قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس الشديد بالصرعة, إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)([1]),وقوله: (ليس الغنى عن كثرة العرض, إنما الغنى غنى النفس([2]))([3])

8-ويعرفها الدكتور عبد المجيد النجار تعريفا واسعا يجمع بين مجالات الذهن والتعبير والتصرف,ويجمع بين حالة الفردية وحالة الجماعية فيرى أن الحرية تعني في أقرب معانيها (أن يكون الإنسان متمكّنا من الاختيار بين وجوه ممكنة من القناعات الذهنية والتعبيرات القولية والتصرفات السلوكية، سواء على مستوى الفرد في خاصّة نفسه أو على مستوى انتمائه الجماعي.)([4])

9-و يرى الأستاذ راشد الغنوشي أن محور تعريف الحرية أن نمارس مسؤوليتنا ممارسة إيجابية، أن نفعل الواجب طوعاً ...بإتيان الأمر واجتناب النهي، فنستحق درجة الخلفاء وأولياء الله الصالحين ...وفي ذلك انعطاف بتعريف الحرية نحو الشهود الحضاري والتفاعل المجتمعي وأن مفهوم الحرية بهذا المعني تدور عليه جملة مواقف مفكري الإسلام وأن أفضل من بلور مفاهيم الحرية في الإسلام من المفكرين الإسلاميين المحدثين العلامة المغربي العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والعلامة الشيخ علال الفاسي والمفكر السوداني حسن الترابي، والفيلسوف محمد إقبال والمفكر الجزائري مالك بن نبي، والأستاذ محمد فتحي عثمان([5])

ويبدو في تعريف الشيخ الغنوشي الحرية بهذا التعريف, وربطها بهذا المعنى, وتبنيه لتعريفات الرواد الذين ذكرهم اهتمام أصحاب الفكر الحركي بجانب التوظيف والتسخير, وربط المفاهيم بمعاني عملية بنائية, بعيدا عن الوقوف بها عند جانب الحد والمصطلح, والتحرك بها من التوصيف دون التكييف, ومن الوعي إلى السعي.

---

[1] -أخرجه البخاري: 226/5, باب الحذر من الغضب.

[2] -أخرجه البخاري: 5/ 2367, باب غنى النفس, ومسلم 3/ 100, باب ليس الغنى عن كثرة العرض.

[3] - انظر: تنظيم الإسلام للمجتمع,للعلامة الإمام محمد أبي زهرة,ط: دار الفكر العربي, بدون تاريخ.

[4] - الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية أبعادها وضوابطها د عبد المجيد النجار, ضمن بحوث مؤتمر منظمة ص:3

5 - الحريات العامة في الإسلام , للغنوشي, ص: 28.

1- ومنهم من عرفها بأنها: (حالة الكائن أو الشيء الذي لا يخضع لأي ضغط خارجي، ويعمل حسب إرادته، أو قوانين طبيعته، فالشيء الذي يسقط إلى الأرض حرٌ لأنه يخضع لقوانين طبيعته)([1])

2- الحرية هي الخلوص من الشوائب أو من الرق أو من اللؤم ؛ فإذا أطلقت على الخلوص من الشوائب دلّت على صفة مادّية ، يقال : ذَهَبٌ حُرٌّ لا نحاس فيه .

وإذا أطلقت على الخلوص من الرق دلت على صفة اجتماعية ، يقال : رجل حرٌّ أي طليق من كل قيد سياسي أو اجتماعي .

وعلى ذلك فالحرية تكون على ثلاثة معان:

1) المعنى العام: الحرية خاصة الموجود الخالصة من القيود العامل بإرادته أو طبيعته، من قبيل ذلك قولهم تظهر حرية الجسم الساقط في هبوطه إلى مركز الأرض وفقاً لطبيعته بسرعة متناسبة مع الزمان إلا إذا صادف في طريقه عائقاً يمنع سقوطه.

2-المعنى السياسي والاجتماعي....

3-القدرة على الاختيار من غير مرجِّح. ([2])

وبعد سرد الدكتور إسماعيل الحسني لعدد من التعريفات التي بنيت على أجزاء من النص اللغوي والمادة الاشتقاقية للفظ (حر) يقترب خطوة من دلالة الحرية البانية التي نتغياها في تلك الدراسة والتي يكون لها أثر في البناء والإنماء, والإعمار والإثمارو فيرى أن كل تلك التعريفات تعد بيانا للقيود التي تقف حجر عثرة أمام نتاج عقل الإنسان وإرادته, وعطائه وثمرته فكلها تنظم في معنى محوري مفاده: (تخليص الإنسان من أخلاقيات العبيد, و من صرف الغير, و من ثقل الضرائب و من التحجير و الوصاية على اختلاف أشكالها و صورها و ألوانها. و الحق أنها بمثابة القيود التي تحد من إرادة الإنسان، و تعوقه عن التمتع بثمرات كسبه المادية و المعنوية، و من جملة تلكم الثمرات ما تقدمه قريحته من عزائم, و ما يولده فكره من آراء. لا يخفى أن الإنسان كائن اجتماعي يتواصل مع بني جنسه بطرق مختلفة من الملاطفة، والممازحة، و بأصناف من المحاورة و المحاسبة، و صور من المعاهدة و الملازمة التي لا تنأى في معظم الأحوال عن التهارج و

[1] - الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية, أبعادها وضوابطها, د محمد بشاري ص: 4, , مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي الدورة التاسعة عشرة.

[2] - حرية التعبير عن الرأي, محمد صالح الفرفور: ص: 9, وانظر: المعجم الفلسفي ج1 ص339 وما بعدها.

التدافع و التمانع. و كلها أشكال تواصلية تقتضي من الإنسان أن يكون له من خلالها رأي لا بد له أن يعبر عنه.....)([1])

لقد تعددت تعاريف المتكلمين عن الحرية بقدر تعدد مشاربهم واختلفت بقدر اختلاف مواردهم ومنطلقاتهم, والجوانب التي عنوا بها,فمنهم من عرفها من ناحية فلسفية,ومنهم من عرفها من ناحية سياسية, ومنهم من عرفها من ناحية اجتماعية([2]), لكن يعنينا هنا الجانب السلوكي الفكري الذي يؤثر في النهضة والشهود الحضاري, ويمكن أن نستخلص ملامح التعريف من خلال ما سبق في ضوء الجزء الحضاري والشهودي للأمة المسلمة؛ حتى تؤدي دورها, وتتصدر لمسؤوليتها من خلال نقاط محددة تجمع شتات تلك التعريفات على النحو الآتي:

1- الخلوص والانعتاق من كل رق سواء كان حسيا أو معنويا.
2- القدرة على اجتلاب الحقوق وأداء الواجبات, ولا تقوم حضارة إلا على ذلك والحرص عليه.
3- القدرة على اتخاذ موقف ما في لحظة مناسبة, ويبدو أثر ذلك في الحضارة من حيث تشابك الحضارات لا تصارعها, والقدرة على تمايز الحضارة القائمة على الوحي والقيم عن غيرها.
4- القدرة على الاختيار بين ممكنات متعددة, وفي ذلك ن ثراء الحضارة وتنوعها ما فيه.
5- الانتصار على النفس والسيادة عليها, وهذا إن بدا فيه أنه معنى نفسي فردي, إلا أنه مؤثر في بناء الحضارة؛ لأن الحضارات لا تقوم على المؤسسات فحسب بل مهمة الأفراد فيها, وقناعتهم بتلك المهمة من أكثر الأمور تأثيرا وخطرا.

---

[1] - حرية التعبير عن الرأي, د إسماعيل الحسني,بحث مقدم لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامي الدورة التاسعة عشرة, ص: 6.

[2] - انظر في تتبع تلك التعريفات :مفهوم الحرية,دراسة تأصيلية, بحث تكميلي لمرحة الماجستير, علي أحمد فقيهي جامعة الإمام محمد بن سعود, كلية الشريعة, قسم الثقافة الإسلامية, لعام 1431 ,1432ه,ص: 16 وما بعدها.

المبحث الثاني

مفهوم الشهود الحضاري للأمة المسلمة وعوامله ومنهجية القرآن الكريم في البيان عنه.

يعنينا هنا بداية الوقوف على مفاد كلمتين: الشهود, والحضارة, ثم نقف أمام مصطلح الشهود الحضاري, على النحو الآتي:

مفهوم الشهود:

وردت مادة الشهادة في القرآن الكريم مرات متعددة, بلفظ: شهد, وتشهد وأشهد, ويشهد, وشاهد, وشهود, والأشهاد, وشهيد, وشهداء, والشهادة, وشهادتهم, وشهادتنا, ومشهد, ومشهود([1])

ووردت في اللغة تدور حول عدد من المعاني مثل: العلم, الحضور, الخبرة, أو العلم الشديد, الإخبار, الخبر القاطع, الإبانة, الأداء, الحكم, الإقرار, الإخبار.

ويمكن أن ترد هذه المعاني إلى أربعة معاني أصلية, هي:

1- الشهود بمعنى الحضور مقابل الغياب.

2- الشهود أو الشهادة بمعنى العلم, إما بالبصر وإما بالبصيرة.

3- الشهادة بمعنى الإخبار, والبيان, والتبليغ.

4- والشهادة بمعنى الأمانة والعدل في الإخبار بالمعلوم.

تلك المعاني الأربعة تكاد تكون الأصول التي دارت عليها دلالات المادة وتقلباتها

وإذا تتبعنا أقوال علماء اللغة وجدنا ذلك بينا على النحو الآتي:

قال صاحب اللسان: (قيل: الشهيد الذي لا **يغيب** عن علمه شئ. والشهيد: **الحاضر**. وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل فإذا اعتبر العلم مطلقا،فهو **العليم**، وإذا أضيف في الأمور الباطنة فهو **الخبير**، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة، فهو الشهيد، وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة. ابن سيده: الشاهد **العالم الذي يبين ما علمه**،... وقال أبو بكر بن الأنباري في قول المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله: **أعلم** أن لا إله إلا الله وأبين أن لا إله

[1] - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, مادة: شهد, ص: 492_495.

إلا الله. قال: وقوله أشهد أن محمدا رسول الله أعلم وأبين أن محمدا رسول الله. وقوله عز وجل: شهد الله أنه لا إله إلا هو، قال أبو عبيدة: معنى شهد الله **قضى** الله أنه لا إله إلا هو، وحقيقته **علم** الله وبين الله لأن الشاهد هو العالم الذي يبين ما علمه، فالله قد دل على توحيده بجميع ما خلق،([1])

ويقول الراغب: (الشهود والشهادة **الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة** وقد يقال للحضور مفردا قال: (عالم الغيب والشهادة), لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى.... والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر.)([2])

والفرق بين الشهادة والعلم: (أن الشهادة أخص من العلم وذلك أنها علم بوجود الأشياء لا من قبل غيرها، والشاهد نقيض الغائب في المعنى ولهذا سمي ما يدرك بالحواس ويعلم ضرورة شاهدا، وسمي ما يعلم بشئ غيره وهو الدلالة غائبا كالحياة والقدرة، وسمي القديم شاهدا لكل نجوى لأنه يعلم جميع الموجودات بذاته، فالشهادة علم يتناول الموجود، والعلم يتناول الموجود والمعدوم.)([3])

مادة الشهادة ودورانها في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم في مواطن متعددة إثبات لكون الأمة الإسلامية هي أمة شاهدة على الناس, وهي في مجملها تنحو منحى التكليف بهذه الشهادة, سواء كان ذلك بأمر مباشر أو غير مباشر, حتى أصبح هذا المعنى يمثل معنى كليا تندرج تحته تفاصيل وجزئيات, وحتى أصبح هذا اللفظ ينحو منحى مصطلحيا يشير إلى مهام معينة كلف بها المسلمون مع ما تقتضيه من أسباب ومقدمات. ..فوردت مادة (شهد) ومشتقاتها في القرآن الكريم ورودا واسعا سواء من حيث الكثرة في مواقع الورود, أو من حيث التعدد والثراء في المعاني التي استعملت فيها المادة.([4])

ومن بين الموارد الكثيرة جاءت مادة (شهد) اصطلاحية في معنى الشهادة على الناس على عدد من الصور, هي:

---

[1] - لسان العرب : (13 / 470 ,471).

[2] - مفردات غريب القرآن للأصفهاني: (1 /267 , 268), بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (1 / 963)..

[3] - الفروق اللغوية للعسكري: (1 / 305).

4 - الأمة الوسط والشهود الحضاري, د عبد المجيد النجار, ضمن مجموعة بحوث للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين: 184 وما بعدها.

1-الصورة الأولى: وردت المادة تدل بصيغة نصية على أن الأمة الإسلامية شاهدة على الناس, ومن ذلك قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)البقرة:143.وقوله تعالى:(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) للحج:78.

2-الصورة الثانية: موارد يفيد فيها معنى الشهادة بصيغة الأمر, بأن يكون المؤمنون شهودا بالقسط, ومن ذلك قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا), النساء: (135),وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) , المائدة:8.

3-الصورة الثالثة: موارد يفيد فيها شهادة الأنبياء والرسل على أقوامهم, ومنه قوله (تعالى): (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا, الأحزاب: (45)) وقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) , الفتح:(8), وقوله (تعالى): (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا), المزمل: (15),وقوله (تعالى): (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) ,النساء: (41) وقوله (تعالى): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا), البقرة: 143, وغير ذلك من الآيات الكريمة الكثير, كما في سور: المائدة117, والنحل: 84, 89., والحج 78.

وقد تتبع الدكتور عبد المجيد النجار في بحثه القيم عن: (الأمة الوسط والشهود الحضاري) كلام المفسرين عن الشهادة, وحصرها في النقاط الآتية:

1- البيان والتبليغ والدعوة.

2- الحكم على الناس في استقامتهم وضلالهم.

3- الحجية على الناس و بمعنى أن ما جاء به القرآن والسنة وما بلغ للمسلمين وما اتفقت عليه كلمتهم حجة على الناس.

4- انتهاج العدل والقسط إزاء الناس.

5- الأسوة الحسنة.

وتلك معاني يؤكدها القرآن, ودلالات يدور حولها مفهوم الشهادة في القرآن الكريم بحق.

مفهوم الحضارة:

المتتبع للمفردة في كتب اللغة يجد أنها تدور حول عدد من المعاني, يمكن رصدها في الآتي: تأتي الكلمة بمعنى القرب, وبمعنى الاجتماع, وهي عكس البادية, وتأتي بمعنى المغالبة, والإسراع, ووجود القوم بقرب الماء, وكثرة الآفة.

يقول الخليل: (الحضر: خلاف البدو، والحاضرة خلاف البادية؛ لأن أهل الحاضرة حضروا الأمصار والديار. والبادية يشبه أن يكون اشتقاق اسمه من: بدا يبدو أي برز وظهر، ولكنه اسم لزم الموضع خاصة دون ما سواه، والحضرة: قرب الشيء. تقول: كنت بحضرة الدار... والحاضر: هم الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم فصار الحاضر اسما جامعا كالحاج والسامر ونحوهما... والحضر والحضار: من **عدو الدابة**، والفعل: الإحضار. وفرس محضير بمعنى محضار غير أنه لا يقال إلا بالياء وهو من نوادر كلام العرب، ...والمحاضرة: أن **يحاضرك إنسان بحقك فيذهب به مغالبة ومكابرة**.)([1])

(**والحاضرة: القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في** حمراء القيظ، فإذا برد الزمان ظعنوا عن أعداد المياه, وبدوا طلبا للقرب من الكلأ، فالقوم حينئذ بادية بعدما كانوا حاضرة).([2])

ويقول الراغب: (الحضر خلاف البدو, والحضارة: السكون بالحضر كالبداوة والبداوة ثم جعل ذلك اسما **لشهادة مكان أو إنسان** أو غيره.... والحضر خص بما يحضر به الفرس إذا طلب جريه يقال أحضر الفرس، واستحضرته طلبت ما عنده من الحضر، وحاضرته محاضرة وحضارا إذا حاججته من الحضور كأنه يحضر كل واحد حجته، أو من الحضر كقولك جاريته. والحضيرة جماعة من الناس يحضر

---

[1] - العين للخليل بن أحمد: (1 / 188).

[2] - لسان العرب : (9 / 131).

بهم الغزو وعبر به عن حضور الماء، والمحضر يكون مصدر حضرت وموضع الحضور.)([1]), (واللبن محضور ومحتضَر أَى كثير الآفة)([2])

وبين تلك المعاني الأساسية التي تدور عليها الكلمة وترتكز إليها وبين الحضارة الاصطلاحية صلة ونسب, فهي تدل على القرب والحضارة بمعنى المدنية لها من هذا المعنى نصيب, ودلالتها على الاجتماع واضح فيه الصلة بجلاء, فلا حضارة بدون اجتماع, ولا مدنية بدون أمة ومجتمع, أنى كان هذا المجتمع, كما تلمح من معنى المغالبة صفة العلو للحضارة والهيمنة من خلال مَلْكها لمقومات التقدم والسبق, كما أن الإسراع يتصل بالحضارة بنسب, وكما لا تقوم حضارة إلا باجتماع, فلا يكون اجتماع يقيم حضارة إلا بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي, ومع ذلك لا تخلو الحضارة والعمران من آفات فساد العمران.

الحضارة في الاصطلاح

أما الحضارة في الاصطلاح فهي: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، و تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ **و تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهاره([3])**

وكما هو واضح في تعريف الدكتور حسين مؤنس العلاقة الجذرية بين الحضارة والحرية؛ لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهاره, كما قال صادقا.

المفردة في القرآن الكريم

ووردت الكلمة في القرآن بصيغ: حضر, أحضرت, أحضرت, يحضرون, محضرا, حاضرة البحر, محضرون, محتضر.

مفهوم الشهود الحضاري:

---

[1] - مفردات غريب القرآن للأصفهاني: (1 / 122).

[2] - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: (1 / 678).

[3] - الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها, سلسلة عالم المعرفة, العدد الأول, للدكتور حسين مؤنس,

ومن هذا الرصد لمفردة الشهود, ومفردة الحضارة في اللغة والقرآن يمكن أن نتوصل إلى أن المقصود **بالشهود الحضاري** للأمة المسلمة هو: **وجود الأمة وحضورها وعلمها وبيانها لهذا العلم لمن حولها من العالمين في أمانة وعدل ولو على نفسها, وقدرتها على إنفاذ الصالح والأصلح في ضوء عطاء القرآن لها والسنة النبوية المطهرة وما اتفقت عليه كلمة الأمة.**

كما يعني الشهود الحضاري للأمة المسلمة: (حضور الأمة حضورا تثبت فيه وجودها في مختلف المجالات والميادين؛ لتكون بحق فاعلة في مسؤوليتها إزاء الأمم بذلك الحضور, وحينما تكون غائبة عن الساحة العالمية بتخلفها الحضاري,كما هو حالها اليوم فلن يتم لها شهادة على الناس, وكذلك فإن الشهادة على الناس لا تكون بدون العلم فهو عنصر من عناصرها الأساسية)([1])

وعرفه بعضهم بأنه: (الفعل الاستخلافي المنهجي المؤهل لتجسيد حقائق الأمة الوسط كمشروع لبناء حضاري متوازن يكون بمقدوره استيعاب وتجاوز ونقل الوضع الإنساني القائم من حالة الفوضى والشتاتية والغثائية والوهن والاختلال والتخلف إلى حالة التوازن والنظام والتوحد والتناسق والقوة والاستقرار والترقي على المستوى المعرفي والديني والبشري والمادي والعمراني والحضاري والثقافي الشامل"، وهو من جهة ثانية: "حضور فعلي وواقعي فاعل للوجود الحضاري الإسلامي في واقع الأحداث البشرية الكبرى والمثرية لمسيرة الحضارة البشرية.([2])

أو هو: الفعل الإسلامي الذي يحقق للأمة مركزيتها وقياديتها ويفعِّل مرجعيتها الحضارية حتى تصبح الأمة مصدرا للإشعاع الديني والثقافي والحضاري في واقع الناس والثقافات والحضارات القائمة ([3])

وهو يعني: أن تعود الأمة بحضارتها وقيمها ومفاهيمها شاهدة على العالم مقيمة لحاكمية الإسلام على سائر الثقافات والأديان مهيمنة عليها وهو مفهوم إقامة الدين.([4])

كما تكون الأمة شاهدة حضاريا عندما تكون حاضرة على الساحة الإنسانية, حضورا يحصل بما يمكن أن تقدم وتنفع, فيكون لها الشأن الذي تتبوأ به المكانة العالمية التي يمكن أن تعطي وتنفع ويمكن أن تحكم وتعدل ويمكن أن تنفذ ما تقرر من الصلاح, فهذا الحضور هو المعنى الجامع المبوأ للشهادة من حيث هو الموقف

---

[1] - الأمة الوسط والشهود الحضاري: 195.

[2] - الشهود الحضاري للأمة الوسط, ص:4, مقال منشور على موقع إسلام أون لاين, للببشير قلاتي.

[3] - الشهود الحضاري للأمة الوسط, ص:4.

[4] - المشروع الحضاري , ص: 9.

الذي تكون به الأمة في موقع ممكن من التأثير ويكون به الناس في موقع القابلية لذلك التأثير)([1])

عوامل الشهود الحضاري:

حفل القرآن الكريم في آياته تصريحا وتلميحا, وتبيينا وتضمينا بكثير من عوامل ومؤهلات الشهود الحضاري للأمة المسلمة على نحو عجيب وأعجب منه أن يتفلت ذلك من كثير من المفسرين على جلالتهم وتتبعهم للآيات رصدا وسردا, وتتبعا يشمل كثيرا من جوانب الآية: لغة وصرفا وبيانا ونحوا وفلسفة وإشارة إلى غير ذلك من جوانب, ولعل الواقع الذي كانوا يعيشونه لم يجعل الحاجة ماسة وداعية إلى البيان عن تلك العناصر صراحة كما نعيش اليوم ذلك التراجع الحضاري للأمة على مستويات متعددة ومناحي كثيرة,والمشتكى لله وحده.

ويمكن أن نجد إشارات باهتة لبعض المفسرين, قد تنير لنا الطريق في سبيل البحث عن عوامل الشهود, وخصائص الأمة ومؤهلاتها للريادة والحكم على الناس , وسنجد القرآن الكريم أشد صراحة, وأوضح تعليلا لتلك الشهادة والقيومية على البشر, بما أهلت له الأمة المسلمة لا من ناحية الجنس كما غر اليهود دينهم, بل من جهة منهجيات أمرت بها الأمة, وكلفت بها وزمان هيئوا فيه, ومكان نشأت فيه دعوتهم؛ حتى يكونوا وسطا بين الناس, زمانا ومكانا, وحضارة, وتاريخا,وجغرافيا, ومنهاجا, ولعل في الصفحات القادمة ما يبين بعض ملامح تلك العوامل والخصائص.

وسطية الأمة والشهود الحضاري

نصت آيات القرآن الكريم على وسطية الأمة, في غير ما موضع, وربطت تلك الوسطية بالشهادة على الناس, ربطا يفيد العلية والترتب, وجاء ذلك واضحا في قوله (تعالى): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)البقرة:143.وقوله تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) للحج:78.)

وهذه الشهادة على الناس (دنيوية وأخروية . فأما الدنيوية فهي حكم هاته الأمة على الأمم الماضين والحاضرين بتبرير المؤمنين منهم بالرسل المبعوثين في كل زمان, وبتضليل الكافرين منهم برسلهم والمكابرين في العكوف على مللهم, بعد مجيء

[1] - الأمة الوسط والشهود الحضاري : 198.

ناسخها وظهور الحق، وهذا حكم تاريخي ديني عليه إذا نشأت عليه الأمة نشأت على تعود عرض الحوادث كلها على معيار النقد المصيب .

ومن مكملات معنى الشهادة على الناس في الدنيا وجوب دعوتنا الأمم للإسلام، ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إياهم حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين.)([1])

وقد قال السمرقندي في بيان هذه الشهادة: (إنكم حجة على جميع من خلقنا ورسول الله (ﷺ) حجة عليكم.)([2])

وهذه الوسطية شملت الوسطية المنهاجية,والوسطية الجغرافية, والوسطية التاريخية,والوسطية الحضارية, بل وسطية الثروات والخيرات, ووسطية العنصر البشري تعدادا وإمدادا.

منهاجية القرآن في الحكم على الأشخاص والأشياء والمفاهيم

كما أن من عوامل الشهود الحضاري للأمة منهاجية القرآن في الحكم على الأشخاص والأشياء والمفاهيم, وعدالته في الفصل, بغض النظر عن طرفي القضية, حتى نصح أتباعه بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا), النساء: (135)

خاتمية الرسالة المحمدية

كما أن من عوامل الشهود الحضاري للأمة المسلمة كونها صاحبة الرسالة الأخيرة, والكلمة الخاتمة الفاصلة بين كلمات السماء, بعد أن بلغت البشرية رشدها, واستوت على سوقها, أكملت ما قبلها وأتمت ما بدأه من سبقها.

---

1 - التحرير والتنوير , 2/ 20, 21. وأما الشهادة الأخروية على الأمم فهي الواردة في السنة من استشهاد الأنبياء بأمة محمد (ﷺ) على بلاغهم الرسالة لأقوامهم,والحديث رواه البخاري,من حديث أبي سعيد الخدري,عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء نوح وأمته فيقول الله هل بلغت؟ يقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، أو ما جاءنا من نذير، فيقول الله تبارك وتعالى لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:143]. قال النبي: والوسط العدل، فيدعون فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم), انظر: صحيح البخاري:1215/3, باب قوله تعالى: إنا أرسلنا نوحا, وجامع الأصول: 46/24.

(

2 - بحر العلوم:125/1.

و بان ذلك جليا في حديث النبي (ﷺ) (مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة)(1)

منهجية القرآن في التعامل مع الآخر

ومن عوامل الشهود الحضاري للأمة المسلمة منهجية القرآن الكريم وهو دستورها الخالد- في التعامل مع الآخر واعتبار القرآن الكريم الناس كلهم أمة واحدة, سواء كانوا أمة دعوة أو أمة رسالة,ومن هنا عدل مع الجميع في الحكم, وسوى بينهم في الفصل, ودعا المسلمين كما سبق إلى العدل مع الجميع ولو على أنفسهم, وأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء بالحق.

موقف القرآن من العلم

ومن عوامل تأهل الأمة المسلمة للشهود الحضاري موقف القرآن خاصة والإسلام عامة من العلم, ونظرته إلى العلم بمعانيه الواسعة, سواء أكان علما شرعيا أو تقنيا, علما بالحياة أو الأحياء,علما بالكون وما فيه,وأطرافه وخوافيه, علما بقوانين الحياة وسنن الله فيها, أو علما بالشعوب وطبائعها وعاداتها وتقاليدها, وإلا فكيف يحكم عليها وهو يجهلها, وللشيخ محمد عبده كلام بديع حول قوله (تعالى): (كان الناس أمة واحدة),إذ يقول: (أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله (تعالى) : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) (2 : 213) الآية - وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ؟ وما معنى تلك الواحدة التي كانوا عليها ؟ وهل كانت نافعة أم ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثه النبيين فيهم ....)(2)

إلى غير ذلك من عوامل الشهود التي يطول المقام بذكرها, وإن كنا في مسيس الحاجة إلى التبصر بها والوعي الدافع على السعي لإنهاض الأمة والإقلاع بها من جديد.

الحرية والشهود الحضاري

وتبقى الحرية من أهم عوامل الشهود الحضاري؛ لأن كل هاته العوامل السابقة مرتبطة بها, ولا تنتج نتاجا حقيقيا إلا عن طريقها؛ فلا بلاغ إلا بالحرية, ولا علم إلا بالحرية, ولا وعي بالحياة والأحياء إلا بالحرية, ولذلك سنتابع في ذلك السبيل بيان منهجية القرآن في غرسها في نفس الإنسان مطلق الإنسان, وبيان أثر ذلك في النهضة والشهود الحضاري, وذلك فيما يأتي من صحائف,,,

---

1 -صحيح البخاري: باب خاتم النبيين, 1300/3.,ومسلم: باب ذكر كونه خاتم النبيين, 64/7,ومسند أبي داوود: 472/1.

2 - تفسير المنار: (1 / 21).

المبحث الثالث

منهجية القرآن الكريم في بيان الحرية وغرسها في نفس الإنسان, وبيان العلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

أعلى القرآن الكريم من قيمة الحرية, وأبان عن منزلتها, حتى جعلها مقابل الحياة؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا مع الحرية الحقيقية؛ فجعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة, وفيه من الإشارة إلى قيمة الحرية ما فيه, كما قال الإمام النسفي – رحمه الله ـ وهو يفسر قول الله ـ سبحانه وتعالى : " ومَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ " النساء : 92 ـ ..معللا: لماذا كانت كفارة القتل الخطأ تحرير إنسان من رق العبودية: فيقول: (لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها, من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر, والكفر موت حكماً. { أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـاهُ } [الأنعام: 122] ([1])

وهذا من بدائع الإمام النسفي في لَحْظِ تلك اللطيفة المقاصدية السننية في الآية الكريمة.

ويلمح صاحب التحرير والتنوير في الآية ملمحا بديعا, وهو أن بالقتل حدث تفويت لعبودية عبد لله, سواء ممن مات أو ممن يرجى من نسله, وفي تحرير الرقبة عوض عن شيء من ذلك, فقد (جعلت كفارة قتل الخطأ أمرين: أحدهما تحرير رقبة مؤمنة، وقد جعل هذا التحرير بدلا من تعطيل حق الله في ذات القتيل، فإن القتيل عبد من عباد الله ويرجى من نسله من يقوم بعبادة الله وطاعة دينه، فلم يخل القاتل من أن يكون فوت بقتله هذا الوصف، وقد نبهت الشريعة بهذا على أن الحرية حياة، وأن العبودية موت؛ فمن تسبب في موت نفس حية كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة وهي المستعبدة.)([2])

ولهذه الحقائق الرائقة جعل الإسلام مصرفا من مصارف الزكاة الثمانية: تحرير الأرقاء، أي: إحياؤهم بالحرية من موات الاسترقاق ..كما جعل بقية المصارف المالية تحريرا للفقراء من رق الفقر والعوز و الحاجة ..فكأنما كل مصارف الزكاة موجهة للحريةوالتحرير!..
فكل قيد على الإنسان, كل الإنسان, سواء كان مسلما أو كافرا, حد من حريته وتقليل من طلاقة رغبته,وكما أن العبودية رق حقيق فالفقر والعوز رق قاهر,ومذلة مقعدة,

---

[1] - تفسير النسفي: (1 / 233).

[2] - التحرير والتنوير: (5 / 159).

وحاجة تحول بين الإنسان وإرادته, فلا يفكر تفكيرا سويا, ولا يعمل عملا منطقيا, وكما قال الشافعي : لا تشاور كيف من ليس في بيته دقيق؛ لأنه مدله العقل.([1])

بل إن المجتمع كله في عين الشارع حين يشرع مثل هذه العقوبة, (فالقبض الذي حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط في حرية واحد كان محكوماً في حركته, فنقول له: انطلق في حركتك لتخدم كل مجتمعك. ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التي جعلها الإسلام لذلك.)([2])

ومن هنا جعل الإسلام الحرية مقصدا من مقاصده, وغاية من غاياته, فيحرر الإنسان من كل ما سوى الله (تعالى), وعبوديته لله هي الحرية الحقيقية, كما جعل الإسلام الحفاظ على النفس مقصدا من مقاصده؛ لأن بها قوام الدين, وبقاء الإسلام.

لقد ربى القرآن الكريم أتباعه على الحرية, وبنى في نفوسهم الرغبة في أن يكونوا أحرارا أباة, لا يخضعون لظلم, ولا يأبهون بالطغاة, وجعل ذلك منهجية ثابتة في بناء نفوسهم وعقولهم, وسلك في سبيل ذلك عددا من المسالك تعد منهجيات ثابتة, ومعالم أساسية في بناء الشخصية المسلمة السوية,ومن تلك المنهجيات:

1- بيان قيمة الحرية والإشادة بها

فقد تكرر في القرآن الكريم -كما مر الدعوة إلى الحرية, وبيان قيمتها, وأنها تعدل الحياة, ولم يُكره الإنسان في شيء حتى في إيمانه بربه, بل جعل الاختيار الصادق أساس الإيمان الصادق, وعد الاختيار الظاهر مواربة أو موائمة لونا من النفاق الذي يكون مصير أصحابه الدرك الأسفل من النار, ولا يعد صاحبه شيئا في ميزان المجتمع المسلم, الذي يقوم على الصدق في الاختيار , ولو في اختيار ربه ومعبوده,والوضوح في الرأي, والحرية المطلقة ولو في أخطر القضايا وأعظم المواقف.

لقد حمى الإسلام المسلم وغيره من الإكراه والاضطهاد, وسماه (فتنة), كما حماه من سيطرة الرياسة والاستبداد, وتلك من مراعاة الإسلام للفطرة السوية, والصبغة التي صبغ بها الإنسان, كما يقول صاحب المنار: (هذه المزية (الحرية) من مزايا الإسلام هي نتيجة المزايا التي تجعل الإسلام دين الفطرة، فأما منع الإكراه فيه وعليه, فالأصل فيه قوله (تعالى) لرسوله (ﷺ) بمكة : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (10 : 99 - 101) علَّم الله

---

[1] - منسوبة للإمام الشافعي, ميزان الاعتدال: 2/ 5.

[2] - تفسير الشعراوي: (/ 373).

(تعالى) رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين ، وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ...وأما منع الفتنة، وهي اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه، فهو السبب الأول لشرعية القتال في الإسلام ...

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي (ﷺ) وخلفائه الراشدين)([1])

وتكفي مطالعة سريعة لموارد الحديث عن الحرية ومرادفاتها ومقابلاتها في القرآن الكريم ليتضح لنا عناية القرآن الكريم بها وتأكيد قيمتها, حتى عد القرآن الإنسان الحر ملكا من الملوك,في قوله (تعالى) على لسان موسى -عليه السلام- في مخاطبته لبني إسرائيل وهو يعدد عليهم نعم الله (تعالى) : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ), المائدة:(20)

(فمن يفهم العربية حق الفهم يجزم بأنه ليس المراد أنه جعل أولئك المخاطبين رؤساء للأمم والشعوب يسوسونها ويحكمون بينها, ولا أنه جعل بعضهم ملوكا ; لأنه قال : (وجعلكم ملوكا) ولم يقل: وجعل فيكم ملوكا، كما قال : (جعل فيكم أنبياء) فظاهر هذه العبارة أنهم كلهم صاروا ملوكا، وإن أريد بـ " كل " المجموع لا الجميع ; أي: إن معظم رجال الشعب صاروا ملوكا، بعد أن كانوا كلهم عبيدا للقبط، بل معنى الملك هنا الحر, المالك لأمر نفسه, وتدبير أمر أهله، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال بعد ذلك الرق والاستعباد، يدل على ذلك التفسير المأثور; ففي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا عند ابن أبي حاتم : " كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا " ، وفي حديث زيد بن أسلم : " من كان له بيت وخادم فهو ملك " رواه أبو داود في مراسيله ، تفسيرا للآية بلفظ " زوجة ومسكن وخادم " .... والمعنى الجامع لهذه الأقوال: أن المراد بالملك هنا: الاستقلال الذاتي، والتمتع بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف وسياسة البيوت، وهو مجاز تستعمله العرب إلى اليوم في جميع ما عرفنا من بلادهم، يقولون لمن كان مهنئا في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوما مع أهله ، فلان ملك ، أو ملك زمانه; أي يعيش عيشة الملوك)([2])

وفي تعليل صاحب المنار النهيَ القرآني للمؤمنين عن سب الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم في قوله تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

---

[1] - تفسير المنار: (11 / 209).

[2] - تفسير المنار: (6 / 267).

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ), الأنعام: (108). بيان لطيف لقيمة الحرية, وفك أسار الإنسان من كل قيد يحول بينه وبين اختياره الحر, وإرادته المطلقة, فيرى صاحب المنار أن (من مقتضى سنته (تعالى) في خلق البشر متفاوتي الاستعداد، مختلفي الفهم والاجتهاد، أن لا يتفقوا على دين، ومن مقتضى هدايته في بعثة الرسل أن يكونوا مبلغين لا مسيطرين وهادين لا جبارين، فعليهم أن لا يضيقوا ذرعا بحرية الناس في اعتقادهم، فإن خالقهم هو الذي منحهم هذه الحرية, ولم يجبرهم على الإيمان إجبارا وهو قادر على ذلك)([1])

من هنا ندرك بوضوح لم عني الفقهاء بالحرية في كتاباتهم, وكيف دار عليها كثير من أبواب الفقه,في البيع والشراء, والزواج والطلاق, وغير ذلك من أبواب الفقه, وتكفي مطالعة سريعة لأبواب الفقه على تنوعها من عبادات, ومعاملات, ليرى الناظر مدار كثير منها إن لم يكن جميعها على الحرية, وطلاقة الاختيار.

2- الدعوة إلى إعمال العقل وإجالة النظر وعلاقة ذلك بالحرية والشهود

ومن أساليب القرآن الكريم في غرس الحرية في نفوس المؤمنين, بل الناس أجمعين, دعوته للنظر والتفكر, والتأمل والتدبر, والوصول من الرؤية إلى الفكرة, ومن الوعي إلى السعي, ومن العلم إلى العمل, ومن التوصيف إلى التوظيف, ورغبته في أن يتعلم الإنسان التعرف على القضية, أي قضية, عبر الرصد والملاحظة,في الآثار والأغيار, حتى في قضايا الإيمان بالله ورسوله وكتابه, (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46), سبأ: 46.

تكرر في القرآن الكريم الدعوة إلى إعمال العقل, وإجالة النظر, ونعى القرآن الكريم على المقلدين الذين يتبعون آباءهم, كما يتبع الحيوان صوت الحادي والزاجر, لا يفرق بين هذا وذاك إلا بالإشارة, وتلونت دعوة القرآن إلى ذلك وتعددت, حتى ورد الأمر بالسير والنظر, والتفكر والتدبر, والسياحة مرات عديدة لافتة للنظر, فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45), فاطر: 44, 45.

[1] - تفسير المنار: (7 / 553).

وقال: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22), غافر:21, 22.

وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85), غافر:82-85.

وفي الآيات الكريمة دعوة إلى السير في الأرض, والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم, وما كانوا فيه من قوة وحضارة, وآثار في الأرض, وعندما جاءتهم الرسل بالبراهين الساطعة, والبينات القاطعة استغنوا بعلمهم وحضارتهم, ونكصوا على أعقابهم, قاصرين العلم على المادة تاركين علم الوحي, ونور الهداية, جاهلين أن الحضارة لا تكون في المادة فحسب, فالاعتماد عليها وحدها يجعلها حضارة شوهاء ترف – إن رفت- بجناح واحد, عرجاء تمشي_إن مشت _ على قدم واحدة, وإيراد لفظ السنة هنا إشارة إلى اللاحقين أن هذا ينطبق على كل من سار سيرهم, ونسج على منوالهم, فسنن الله حاكمة, ونواميسه قاهرة لا تتخلف ولا تتبدل.

وفي الآيات (مشروعية السير في البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان, وأن القوى المادية لا تغني عن أصحابها شيئا إذا أرادهم الله بسوء, و بيان سنة بشرية وهي أن الماديين يغترون بمعارفهم المادية ليستغنوا بها عن العلوم الروحية في نظرهم إلا أنها لا تغني عنهم شيئاً عند حلول العذاب بهم في الدنيا وفي الآخرة.)([1])

أقول: ليس لتقوية الإيمان فحسب, وإن كان غرضا مطلوبا, وهدفا مرغوبا, بل لإتاحة الحرية لهؤلاء أن ينظروا في الكون وما فيه, والحضارات السابقة, وأسباب عمرانها وخرابها, وعلل بقائها وفنائها, فيروا دون مانع, ويتعرفوا دون حاجز, فتكون قناعتهم داخلية لا إملائية, ورؤيتهم علمية لا حلمية.

إن صاحب البضاعة الثمينة النفيسة لا يضره أن يتعرف الناس عليها, بل يحرص على أن يخبروها, ويعركوها, ويسبروا أغوارها؛ فليس لديه ما يخاف منه, أو ما يعاب عليه؛ لذا تراه هو الذي يبادر بتقليب بضاعته, وعرضها على راغبيها؛ ثقة منه فيما لديه؛ واطمئنانا إلى سلامة ما بين يديه.

[1] - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: (7 / 414).

وفي السياق نفسه يأتي قوله (تعالى): (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10), محمد:10.

وقوله (تعالى): (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138), آل عمران: 137, 138.

وربط القرآن الكريم في أمره بالنظر والتفكر بين التأمل والتفكير, وبين النهضة والبناء, والحضارة الحقيقية, سواء في الحديث عن أسباب بقائها أو أسباب فنائها, فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10),الروم: 9, 10.

وفي حديث القرآن عن العلم والعلماء لم يقصرهم على علماء الدين وفقهاء الشريعة, وهم من هم: فضلا وقدرا, بل ضم معهم علماء الطبيعة والزراعة, والجبال,والحيوان, والاجتماع, فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28), فاطر: 27, 28.

وفي بيان علاقة الحرية والاستقلال بالحضارة والتقدم يقول صاحب المنار: إن (قاعدتي الحرية والاستقلال، هما الأساس الذي قام عليه بناء الإسلام، وإن علماء الشعوب الشمالية التي سادت في هذا العصر علينا، يعترفون بأنهم أخذوا هاتين المزيتين ـ استقلال الفكر والإرادة ـ عنا وأقاموا بناء مدنيتهم عليهما)([1])

وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن منهجية القرآن في بيان العلاقة بين الحرية والشهود الحضاري.

3- الحوار وتبنيه في جميع المجالات والقضايا وعلاقته بالحرية

ومن الأساليب التي اتبعها القرآن في غرس قيمة الحرية في نفوس أتباعه خاصة, والناس عامة: الحوار, فنجد غنى القرآن بالحوار, وتنوع أساليبه فيه, لقد حاور الله

[1] - تفسير المنار: (5 / 73, 74).

(تعالى) أهل الكتاب, من اليهود والنصارى, وحاور المشركين ودعاهم إلى التفكر والنظر, وحاور إبليس,كما حاور الله (تعالى) الملائكة في قضية شهيرة حفلت بها ثاني سورة من حيث ترتيب الهداية, وهي سورة البقرة, وهي قضية خلق آدم, فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)),البقرة: 30-33.

فقد سمح الله (تعالى) لهم بالحوار في قضية خطيرة, وهي قضية خلق يكون في الأرض, وسمع منهم حجتهم, ودلل لهم على خيرية أن يكون في الأرض خليفة, وبرهن لهم بتعليم آدم الأسماء, وكان سبحانه غنيا عن ضرب المثال, وبيان الفائدة, فهو الملك لا معقب لحكمه, ولا راد لأمره, ولا يقع في ملكه إلا ما يريد, غير أنه (جل جلاله) أراد أن يغرس في نفس السامعين للقرآن والتالين له قيمة الحوار, وما يتيحه من حرية هي أساس الخلافة والشهود, وإلا فكيف يكون الإنسان خليفة لله دون أن تكون لديه القدرة والحرية على بيان حجته, والتعبير عن رأيه, والصدع بما يقتنع به؟!

(فإن قيل: ما الفائدة في أن الله قال للملائكة: " إِنِّي جَاعِلٌ في الأرض خليفةً " مع أنه منزّه عن الحاجة إلى المَشُورة ؟ قيل لأمرين الأوّل : أنه - تعالى - علم أنهم إذا اطَّلعُوا على ذلك السّر أوردوا عليه ذلك السُّؤال ، فكانت المَصْلَحَة تقتضي إحاطتهم بذلك الجَوَاب ، فعرّفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السُّؤال ، ويسمعوا ذلك الجواب .

والثاني : أنه - تعالى - علم عباده المَشُورة)([1])

(وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء. . . إن هذا الإنسان يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه. و في هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه، يضاف إلى

[1] - اللباب في علوم الكتاب: (1 / 499).

عناصر التكريم الأخرى. كما أن فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!)([1])

فمدار الحضارة والشهود إذاً على وعي الإنسان بإرادته, وتحكمه فيها, وقدرته على تفهم أنه خليفة في الأرض من قبل الله تعالى.

4- الشورى وعلاقتها بالحرية

ومن دعائم بناء الحرية في نفس البشرية ما نادى به الإسلام والقرآن من الشورى, والمشاورة, والاستشارة, ومفرداتها, ولقد عني القرآن الكريم بالشورى عناية فائقة, وأولاها اهتماما واضحا, ويعنينا منها هنا أثرها في بناء قيمة الحرية في نفس الإنسان, وأثر ذلك في جعله إنسانا قادرا على الشهود الحضاري, بمعناه الشامل الكامل, من حضور, وعلم, وبلاغ, بل بلاغ مبين, وأمانة في هذا البلاغ, وقدرة على إقامة الحق, والحكم بالقسط, ولو على نفسه أو ذوي القربى, وأن تُخرج منه الإنسان النموذج, الذي يعمر الأرض بمنهاج السماء, ويصلح الدنيا على سنا من ضوء الدين, أن يكون **إنسان الشهود الحضاري** بحق.

لقد دعا الله تعالى رسوله (ﷺ) إلى مشاورة أصحابه في ظرف زماني عجيب, حين نفكر في الترابط بينه وبين طلب الشورى, لقد كان النزول على رأي بعض الصحابة في أُحُد سببا من أسباب الهزيمة, ومع ذلك فقد أكد القرآن قيمة الشورى, بعد معالجة بديعة لنفوس الصحابة, وأحداث الغزوة, (والشورى ممَّا جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة, أي: فطره على محبّة الصلاح, وتطلّب النجاح في المساعي؛ ولذلك قرن الله (تعالى) خلق أصل البشر بالتَّشاور في شأنه إذ قال للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة), البقرة : 30)، إذ قد غَنِي الله عن إعانة المخلوقات في الرأي ولكنَّه عرض على الملائكة مراده ليكون التَّشاور سنّة في البشر ضرورة أنّه مقترن بتكوينه ، فإنّ مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين يوجب إلفه وتعارفه ، ولمَّا كانت الشورى معنى من المعاني لا ذات لها في الوجود جعل الله إلفها للبشر بطريقة المقارنة في وقت التكوين . ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر فقد استشار فرعون في شأن موسى (عليه السَّلام) فيما حكى الله عنه بقوله: (فماذا تأمرون), (الأعراف: 110). واستشارت بلقيس في شأن سليمان عليه السلام فيما حكى الله عنها بقوله: (قالت يأيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون وإنَّما يلهي النَّاس عنها حبّ الاستبداد ، وكراهية سماع ما يخالف الهوى،

[1] - في ظلال القرآن لسيد قطب: (1 / 33).

وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة ، ولذلك يهرع المستبدّ إلى الشورى عند المضائق.)([1])

5- الأدلة الإقناعية في القرآن الكريم وعلاقتها بالحرية

ومن أساليب غرس القرآن لقيمة الحرية في نفوس الناس طريقته في سوق الأدلة الإقناعية, ومنهجيته في التناول والتعامل مع وسائل الإقناع, فتنوعت أساليبه في إقناع السامع, بين قصة تختم بخلاصة وعبرة, وموعظة تؤثر في القلب, وتنبه العقل, وبرهان بين, وجدلية عقلية, لا يملك السامع لها إنكارا, ولا منها فكاكا, والمتأمل لأدلة البعث والنشور, وتناول القرآن لها يجد ذلك واضحا.

فمرة يقول القرآن: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)), ومرة يقول: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)), ومرة يقول: (أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24))

ومرة يستدل على ذلك بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت, كقوله (تعالى): (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ), البقرة: 260,259.

ومرة يستدل بإخراج النار من الشجر الأخضر,ومرة يستدل بحصول اليقظة بعد النوم, إلى غير ذلك من تلوين الدليل, وتنويع الحجة, وتبيين المحجة, بما يتيح للسامع أن يصل إلى الحق بالطريق التي يأنس لها, ويطمئن إلى سلامتها, كل ذلك

[1]- التحرير والتنوير: (5 / 384).

تربية للبشرية على حرية الرأي والتفكير؛ لأنها مناط البناء والعمران, وأساس الحضارة والشهود.

6- التعليل في القرآن الكريم وعلاقته بالحرية

ومن أساليب القرآن في غرس قيمة الحرية في نفوس الناس ما ساقه علماء علوم القرآن تحت باب التعليل, وهو: (أن يذكر الشيء معللا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين: أحدهما أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول, الثاني أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة, بخلاف غيرها, وغالب التعليل في القرآن هو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى, وهو سؤال عن العلة, ومنه (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)),يوسف:53. ومنه: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)3,التوبة: 103.(1)

وفائدته التقرير والأبلغية فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها)([2])

تجد ذلك بينا في تعقيب كثير من الأحكام الإلهية, بصورة لافتة للنظر؛ فالله (تعالى) غني عن أن يعلل لعباده فعله؛ لكنه يعلمهم استقلال الرأي, وحرية العقل, ومنطقية الإقناع؛ لأنه (تعالى) يعد هذا الإنسان لخلافته في الأرض؛ يقيم عليها حضارة, ويبني فيها مدنية, تليق بإقامة شرع الله, وتحكيم كتابه؛ لذلك كلما كانت أفعال البشر معللة مسببة كلما كانت أقرب إلى التفهم والقبول, لقد غرس القرآن في نفوس أتباعه قيمة النقد, وتتبع الدليل, والنظر في المآلات؛ رغبة في بناء شخصية سوية حرة قادرة على الاختيار,عالمة بمغانمه ومغارمه, ولا تقوم حضارة إلا بهذه الشخصية السوية, التي تعي قيمة الحرية, فتعشقها وتتشوف إليها, وتتشوق بل تتحرق إلى وجودها, والعيش في ظلالها.

7- موقف القرآن من الطغيان السياسي وعلاقة ذلك بغرس قيمة الحرية

ومن اللافت للنظر, والداعي إلى التأمل وأخذ العبر, موقف القرآن من الطغيان السياسي, واستبداد الفرد, وحكم الفرعون, سواء كان ذلك الفرعون صغيرا أو كبيرا, قريبا أو بعيدا, مصبوغا بصبغة سياسية أو حتى دينية, مقارنة ذلك بواقع المسلمين, وما هم عليه في الواقع المعيش, لقد أراد القرآن أن يجعل الفرد المسلم,

---

[1] - البرهان في علوم القرآن: (3 / 91).

[2] - الإتقان في علوم القرآن: (3 / 255).

بل الإنسان عامة حرا,مستقلا, لا يتحكم في إرادته متحكم, ولا يسطو على رأيه جبار عنيد, من لصوص العقول, وسُرَّاق الحرية, وغرس في نفوس السامعين ذلك بموقفه البيِّن من الطغيان السياسي, فذكر نماذج المستبدين, وإمامهم فرعون الذي قال:(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ), غافر: (29).

بل بلغ الأمر بالقرآن الكريم أن يخاطب أعظم الخلق الحريص على هدايتهم, والموشك أن يبخع نفسه على آثارهم بقوله: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22), الفجر: 21, 22. وقوله: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآَيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35),الأنعام: 35.

كما أبان القرآن عن آثار الاستبداد السياسي, من ضياع آدمية البشر, وغياب الرغبة في التقدم, أو القدرة على الإبداع والابتكار, واسترقاق الناس حسا ومعنى, وأنه يقطع على المصلحين طريقهم, كما يطبع الأمة بطابع الاستخذاء, ويكبت الحريات ويعقل الألسنة, والإسلام لا يرضى بالاستبداد بل إن الإسلام والاستبداد (ضدان لا يلتقيان فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده, أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلي وثنية سياسية عمياء)([1]). ولا يمكن أن يعيش الاستبداد هانئا أو مستريحا في بيئة ينتعش فيها الإسلام؛ لأن الثاني عدو الأول اللدود, وهل جاء الرسول (ﷺ) إلا ليفك أغلال القرون الأولي, وما تركته في القلوب من زيغ وفساد, وما خلفته في العقول من خرافة وضلال, وتلك كلها آثار الاستبداد, الذي يشل العقل, ويوقف الفكر, ويجعل المرء محصورا في دائرة أضيق من دائرة حسه في الحياة, إن في الجو الصحو والأرض المشمسة (تموت الديدان وتنقرض الأوبئة, ولكن الاسترقاق السياسي عدو البشرية الأول, وسرطان الأمم المعذبة, وفي ليله الطويل لا تلمح العقول أشعة المعرفة, ولا تدري الطباع معنى الكرامة, ولا تشرب النفوس حب الخير)([2]). تلك المعاني التي عمل الإسلام علي إنمائها في النفس, وغرسها في الفؤاد فكان الإسلام يبني والاستبداد يهدم, و كان الإسلام يغرس والاستبداد يقتلع من الجذور.

والحق أن الإسلام أولي الأديان بمطاردة الاستبداد والاستعباد, بكل معانيه, ومحاربته بكل ما في اليد من أداة, ولم تر في الحياة شريعة قاومت الاستبداد والاستعباد كما قاوم الإسلام (ولا تعرف دينا صب على الاستبداد سوط عذاب, وأسقط اعتبارهم وأغرى الجماهير بمناوأتهم والانقضاض عليهم كالإسلام, ولا تعرف مصلحا أدب رؤساء الدول وكبح جماحهم, وقمع وساوس الكبرياء والاشتهار

---

[1] الإسلام والاستبداد السياسي ص 37 .

[2] السابق ص: 17.

الإسلام والأوضاع الاقتصادية ص: 41 .

في نفوسهم كما فعل ذلك نبي الإسلام (ﷺ) لقد كسر القيود, وحرر العبيد, ووضع التعاليم التي تجعل الحاكم يتحرى العدل, والمحكوم يكره الضيم)([1]).

إن تعاليم الإسلام التي ملأت كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) كانت أقصى كفاح ضد لون من الحكم ساد بلاد الإسلام قرونا,لو بليت بقاع أخرى من الدنيا لما بقيت فيها مظاهر للحياة, ولا معالم للعمران([2]).

وسيرد في الصفحات التالية مزيد بيان لموقف الرسل عامة والرسول الخاتم خاصة من الحرية وغرسها في النفوس.

[1] السابق ص 69 .
[2] راجع من هنا نعلم: ص228 بتصرف .

المبحث الرابع

نماذج من إعلاء الحرية في تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم, وعلاقة ذلك بالشهود الحضاري

أرسل الله الرسل, وأنزل الكتب؛ لهداية الإنسان, وإخراجه من الظلمات إلى النور, ومن الضلال إلى الهدى, ومن العبودية إلى الحرية, ومن الخضوع لغير الله إلى التحرر من أسار كل ما سواه, وفي سبيل تلك الغاية كانت رسالة الإسلام واضحة بلا التواء, بينة بلا لبس, ولا غموض, ولا اشتباه, وعاش الأنبياء والمرسلون يعمقون معنى الحرية في نفوس البشر؛ لأن الحرية الحقيقية تعني أن لا يكونوا عبيدا إلا لله الواحد الأحد, وفي سبيل ذلك تعامل الأنبياء والمرسلون مع أقوامهم تعاملا يدعم حريتهم, ويعلي من قيمة اختيارهم, مهما كان هذا الاختيار, وقد سبق عتاب القرآن للرسول (ﷺ) على حرصه الزائد على إيمانهم, ورغبته الشديدة في نجاتهم, ويمكن أن نلمح منهجيات الأنبياء والمرسلين في التعامل مع أقوامهم بغرض ترسيخ قيمة الحرية, البانية للحضارة, والمؤهلة للشهود في النقاط الآتية:

1- مهمة الأنبياء والمرسلين البلاغ المبين لا حمل الناس على الإيمان

تكرر في القرآن الكريم التأكيد أن مهمة الرسل والأنبياء البلاغ, بل البلاغ المبين, ونفيُ أن يكون للرسل والأنبياء سلطة الإكراه على الدين, أو حمل الناس على الدخول فيه بلا بينة ولا برهان ولا سلطان مبين, وورد ذلك بصورة لافتة للنظر, في السور المكية والسور المدنية على حد سواء, فجاء قوله (تعالى) في معرض طمأنة الرسول (ﷺ) على سلامة منهجه, واستقامة طريقه, في محاجة أهل الكتاب: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ),آل عمران: (20).

وقال (تعالى) في بيان أن عذاب المكذبين أو العفو عنهم مرده إليه وحده: (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ), الرعد: (40),وقال: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ), النحل: (82).

وفي موطن أشد صراحة في بيان مهمة الرسل والأنبياء, وأنهم ليسوا حافظين على البشر, بل مهمتهم البلاغ يقول القرآن الكريم: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ), فاطر: (48).

ويبين الله تعالى للأقوام تلك المهمة وحدودها بقوله: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ), المائدة: (92)

ويقول: (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ), المائدة: (99)

وقال: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ), النور: (54).

وقال: (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ), العنكبوت: (18).

وبين (سبحانه) أن ذلك منهاج كل الأنبياء, وطريقهم الذي لا يتخلف ولا يتبدل, وليس محمد (ﷺ) بدعا في ذلك بقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ **عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**),النحل: (35).

وقال الرسل أنفسهم لأقوامهم: (رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17), يس: 16, 17.

كما علموا أقوامهم أنهم يدعون على بصيرة وهدى, هم ومن اتبعهم, وأن مهمتهم البيان والتبليغ, (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

وذلك تمشيا مع قاعدة القرآن نفسه, في ذكر البينة بين يدي الرسول, فضلا عن أن يكون الرسول نفسه بقوله وفعله هو البينة؛ (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

بل يعاتب الله (تعالى) رسوله (ﷺ) على إعنات نفسه, وإرهاقها, في سبيل إيمان قوم علم الله عدم إيمانهم, رغم بيان الحجة, وظهور المحجة, فيقول: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا), الكهف: (6).

ويبين (تعالى) للرسول (ﷺ) سنته في الهدى والضلال, وقانونه في الإيمان والكفر, وأن ليس من مهمة الرسول (ﷺ) أن يحمل الناس على الإيمان حملا, ولا أن يكرههم على السماع إكراها بقوله: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36), الأنعام: 35, 36.

ويبين تعالى لرسوله (ﷺ) في موطن آخر أنه عليم بمن يضل ومن يهتدي, وأن سنته في ذلك مثل سنته في إحياء الأرض الميتة بعد سوْق السحاب إليها, وأن ذلك يحتم

أن لا يُذهب الرسول نفسه على أحد حسرات؛ فكل يمضي حسب سنة الله فيه, من الهداية أو الضلال كما تمضي الأرض بعد بلوغها بالمطر: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9), فاطر: 8, 9.

وهكذا يبين القرآن الكريم بوضوح وجلاء مهمة الأنبياء والمرسلين فهي (مقصورة على البلاغ والإرشاد والمناصحة, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الاهتداء والإيمان فليس إلى الرسل ولا إلى الدعاة، وهذا يؤكد جانبًا من جوانب الحرية، ألا وهو تحرر الإنسان من كل رقابة بينه وبين خالقه، فالعلاقة مباشرة بين الإنسان وربه من غير واسطة أو تدخل من أحد)[1].

2- حوار الأنبياء لأقوامهم وعلاقته بغرس الحرية في نفوسهم

ومن سبل تدريب الأمة على الحرية ما مارسه الأنبياء مع أقوامهم من حوار, وما قاموا به معهم من نقاش, على أسس منطقية, وحجج عقلية, تترك فيها الحرية للمحاور من إثبات رأيه, وصدق نظرته, حفل بذلك القرآن الكريم, كحوار إبراهيم (عليه السلام) مع أبيه آزر, وحوار نوح مع قومه, ورؤيتهم له أنه ما هو إلا بشر مثلهم, وأنه ما اتبعه إلا الذين هم أراذلهم بادي الرأي, حتى قالوا له: (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ), هود:(27).

وكان جوابه المنطقي العقلي : (..يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ), هود: (28).

وحوار هود لقومه, وصبره على تهمهم, وحوار صالح لقومه, وإخبارهم أن معه من البينات ما معه,(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ), هود: (63).

وكل الأنبياء والمرسلين يقولون لأقوامهم: (على بينة من ربي), (على بصيرة), ومعهم من الآيات البينات ما مثله آمن عليه البشر.

كل ذلك تعميق لقيمة الحرية, على الرغم من نصاعة المنهج, وصدق الرسالة, وعظمة البلاغ, وأمانة المبلغ, إلا أنهم يُعلِّمون البشرية كيف يكون الاختيار, وكيف

([1]) انظر: الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية أبعادها ضوابطها, أ.د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل, ضمن بحوث منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشرة, ص:30, نقلا عن: تلبيس مردود في قضايا حية، لمعالي الشيخ: د. صالح بن عبد الله بن حميد/29–30.

تكون حريته, أيا ما كانت نتيجته, وأيا ما كانت عواقبه, ولا يوجد دين سماوي أو نظام أرضي, علم أصحابه وأبان لأتباعه كيف تكون الحرية مثل الإسلام.

(لقد قدم الأنبياء عليهم السلام نماذج رائعة من الحوار الرفيع مع خصومهم في استمالتهم للإسلام, ودحض الحجج المخالفة، من أجل إرساء الاعتقاد على أساس متين من البرهان، ولنا اليوم, ونحن نعيش صراعاً عقائدياً, أن نستهدي بالمناظرات التي دارت بين إبراهيم (عليه السلام) وبين طاغية بلاده، وبينه وبين أبيه,وكذا سائر الأنبياء، وصولاً إلى النبي الخاتم، وكيف عالجوا (عليهم السلام) حجج خصومهم بالحسنى, بعيداً عن المهاترات والمشاحنات التي تردى إليها الجدل الفكري والسياسي اليوم, وسارت على هديهم الحياة الفكرية في عهد الصحابة والتابعين، وفي عصور الإسلام الزاهرة, حيث كانت تتم المناظرات داخل الفرق الإسلامية، أو بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، بمن فيهم الزنادقة، في بلاطات الملوك أو في المساجد، لا سلطان عليها لغير الحجة والبرهان, فكان ذلك تعبيراً واضحاً على تسامح الإسلام، وعلى المنزلة العليا التي أولاها للعقل وللعلم والحرية.)([1])

وإذا انتقلنا إلى خاتمة الرسالات, ومتممة النبوات, وجدنا كيف ربى النبي (ﷺ)أصحابه, ومن بعدهم أتباعه على الحرية من خلال الحوار والنقاش, وقصة الشاب الراغب في الزنا ليست منا ببعيد, فقد حاوره (ﷺ), بما يرفع الإلباس, ويزيل الالتباس, ويبعد عن ذهنه الخطأ, صبر عليه في الحوار, وأتاح له فرصة النقاش, وإن كانت القضية معلوما حرمتها, ومسلما فطرة عدم قبول النفوس الأبية بها, إلا أن النبي(ﷺ) أعطاه من مساحة الحرية ما يناقش به ويحاور تربية له ولغيره على قيم كثيرة من أهمها قيمة الحوار والمناقشة, وسماع الآخر, والصبر على رأيه حتى يصل إلى بر الأمان وشاطئ السلامة.

3- دعوة السنة إلى الحرية

لقد حفلت السنة المطهرة بالعناية بتحرير الإنسان من قيد الرق عامة, ومن أسار العبودية المطلقة لغير الله خاصة, وتكاثرت النصوص النبوية في الحض على تحرير الأرقاء, وأجزلت الفضل في فك الرقاب.

فعن أبي هريرة, عن النبي ((ﷺ)) قال: (من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار حتى فرجه بفرجه)([2])

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله (ﷺ): من أعتق رقبة فك الله بكل عضو من أعضائه عضوا من أعضائه من النار)([1])

---

[1] - الحريات العامة للغنوشي,ص: 40.

[2] - صحيح البخاري: (6 / 2469), و صحيح مسلم : (4 / 217), و الجامع الصحيح للترمذي: (4 / 59), السنن الكبرى, للبيهقي: (10 / 272).

وعن عقبة بن عامر عن النبي (ﷺ)قال: (من أعتق رقبة مؤمنة فهي فداؤه)([2])

وشملت أحاديث النبي (ﷺ)الحرية السياسية,بما فيها حرية اختيار الحاكم,وحرية الحوار بين الحاكم والمحكوم, وحرية التعبير عن الرأي إلى غير ذلك من الأحاديث التي حفلت بها السنة النبوية المطهرة, والحرية المدنية , بما فيها من حرية الأمن على النفس والمال والعرض, وحرية التملك والتصرف والتنقل.

(والأحاديث الشريفة ثرية بتوضيح أبعاد متعددة للحرية السياسية, والمدنية, والعقدية, تعجز البشرية عن التوصل إلى مرادها, أو مفهومها العميق, ويعجز القلم عن تسجيل دورها في إصلاح الأمة والرقي بها إلى مدارج عالية من الحضارة المعنوية والمادية وتحقيق النضج والإيجابية,والأمن والطمأنينة للشعوب الإسلامية)([3])

ومن مجالات دعوة السنة المطهرة للحرية: تحرير الإنسان من الإلف الخاطئ, والعادة المتحكمة, وتحريره من رق العوز والفقر, والتفكير الخرافي, وتقليد الآباء والأسلاف.

ولقد أبان القرآن الكريم عن تلك المهمة من مهمات الرسالة , وهي تحريرهم من الأغلال والأوهام, والإلف الخاطئ, والعادة الآسرة, المقيدة عن النهضة والشهود في مثل قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ), الأعراف: (157).

لقد كان من دعوات المؤمنين: { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ), البقرة: (286), (فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالاً كالتي حملها على الذين من قبلهم, وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة: { إصرهم والأغلال التي كانت عليهم }, فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة ، هينة لينة، تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة، وقيل للرسول (صلى الله عليه وسلم) { ونيسرك لليسرى }وعلى أن الإصر الأكبر الذي رفعه الله

---

[1] - المستدرك على الصحيحين : (2 / 230).

[2] - المعجم الكبير للطبراني: (17 / 333).

[3] - موسوعة أصول الفكر الساسي والاجتماعي والاقتصادي من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين, د خديجة النبراوي ,ط: دار السلام,ط: أولى, 1424هـ 1991م.

عن كاهل الأمة المسلمة، والذي حمله الله على عاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه . . هذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر . عبودية العبد للعبد . ممثلة في تشريع العبد للعبد . وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه . . فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه، فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده، وتلقي الشريعة منه وحده، وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد!

إن العبودية لله وحده -متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده - هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري. الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة، ومن سلطان السدنة والكهنة، ومن سلطان الأوهام والخرافات، ومن سلطان العرف والعادة، ومن سلطان الهوى والشهوة. ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار .

ودعاء المؤمنين:{ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا}: يمثل شعورهم بنعمة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد؛ كما يمثل خوفهم من الارتداد إلى ذلك الدرك السحيق.)([1])

ولقد تأثر الصحابة بمنهاج النبوة في الحرية بأبعادها ومجالاتها, فأتاحوا لمن معهم سبل التعبير والبيان, في غير حجر ولا تسفيه, حتى صدعت المرأة برأيها في صحن المسجد لعمر(ﷺ), خليفة المسلمين, برأي خالفته فيه, وعاد عمر إلى رأيها لما رأى فيه من صدق الحجة, ووضوح المحجة, وقوة البيان, ونصاعة البرهان, بل جعلت جارية ترد على بعض الصحابة رأيهم, وتصحح لهم فكرتهم, (فعن الأحنف بن قيس قال : كنا بباب عمر بن الخطاب ننظر أن يؤذن لنا فخرجت جارية فقلنا سرية أمير المؤمنين فسمعت فقالت : ما أنا بسرية أمير المؤمنين, وما أحل له, إني لمن مال الله (تعالى) قال فذكر ذلك لعمر بن الخطاب, فدخلنا عليه فأخبرناه بما قلنا وبما قالت فقال: صدقت, ما تحل لي, وما هي لي بسرية, وإنها لمن مال الله (ﷻ), وسأخبركم بما أستحل من هذا المال, أستحل منه حلتين: حلة للشتاء, وحلة للصيف, وما يسعني لحجي وعمرتي, وقوتي وقوت أهل بيتي, وسهمي مع المسلمين كسهم رجل لست بأرفعهم ولا أوضعهم.)([2])

بهذه الصورة الإنسانية البديعة البسيطة الباهرة يتعامل خليفة المسلمين وأمير المؤمنين لا مع الأحرار بل مع كل شرائح المجتمع المسلم, وبهذه الثقة من الحرية والأمان تتحدث الجارية, بل يصدق عمر على قولها, ويعيد نفس عباراتها, ويزيدهم

---

[1] - في ظلال القرآن: (1 / 328, 329).

[2] - السنن الكبرى للبيهقي: (6 / 353), وانظر: كنز العمال: (1 / 162).

تفهيما وتعليما, ويزيدنا ثقة في قيمة الحرية في الإسلام ولدى الجيل الفريد من الصحب الكرام.

وموقف عمر من الآمر له بالتقوى, بقوله: لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها([1]), آية من آيات الحرية, وسمة من سمات حضارة الإسلام, وموقف علي (رضي الله عنه) من اشتراطه في الخلافة تمسكه بحقه في حرية الرأي, وطلاقة الاجتهاد, وعدم تقيده باجتهاد الشيخين أبي بكر وعمر بيِّنٌ فيه الحرص على الحرية أي بيان.

ومن حرص الرسول (ﷺ) على حرية الإنسان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة؛ فإن فيها ملكا عادلا لا يظلم عنده أحد, والسنة النبوية المطهرة حافلة ببيان قيمة الحرية, وإعلاء شأنها, فالإنسان هو محور الحضارة, وهدف الرسالات والنبوات, وماذا يفيد الإنسان من مؤسسات مَشِيدة, وقصور عَتِيدة, لا يوجد فيها لحرية الإنسان مكان, ولا لرأيه مكانة, ولقد حفظنا عن بعض شيوخنا: أن الإنسان قبل البنيان, والساجد قبل المساجد, وصدق المتنبي عندما قال:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام([2])

4- شورى الأنبياء لأقوامهم وعلاقتها بتربيتهم على الحرية

ومن سبل بناء الحرية في نفوس المسلمين: تربيتهم على الشورى, تلك التي تعد في الفكر الإسلامي فريضة من فرائضه, ودينا يتعبد المسلمون به ربهم, ليست منحة من أحد, بل تكليفا من الله (ﷻ), ولقد ورد الحديث عنها في القرآن الكريم في مواطن لافتة للنظر, لقد عدها القرآن الكريم صفة من صفات المؤمنين, وسمة من سمات المجتمع المسلم, حتى سمى سورة كاملة باسمها.

(ولقد كان (ﷺ) منذ فجر المجتمع الإسلامي بالمدينة يفسح للآراء مع رأيه, وأخذ يدرب أصحابه, ويستشيرهم, ويعمل بمشورتهم, ويكل إليهم الأعمال التي يتصرفون فيها برأيهم, بل يسألهم أن يحكموا في القضايا, ويطلب منهم أن يقضوا بين يديه.

كان ذلك دينا ووحيا يبلغه (ﷺ) لأمته؛ لتعمل به وتلتزمه, وتتعبد لله به,...إن الشورى والاستماع إلى الرأي الآخر يعتبر دينا, أي أنها أبعد وأخطر من أن تكون وسيلة نجاح في الدنيا, وإصلاحها, والوصول إلى القرار الصائب فحسب, بل هي دين وعبادة, يثاب عليها من يلتزم بها, من الله سبحانه في أخراه, فإذا استحضرنا

---

[1] - فواتح الرحموت: 497/3, ومحض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب,للمبرد, 601/3.

[2] - المتنبي: انظر ديوان المتنبي ط: دار الزهراء, بيروت لبنان, عناية د عبد الوهاب عزام رحمه الله. ص:311

منزلة الآخرة من الدنيا, وأنها الباقية الدائمة, وأن الدنيا هي الفانية الذاهبة, أدركنا قيمة أن يكون الاستماع للرأي الآخر عبادة.([1])

حتى في أحرج الساعات, وأضيق الظروف, كانت تلمع الشورى في الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي, ليهتدي بها أصحابها, وما آية آل عمران في الشورى منا ببعيد, فعلى الرغم من مرارة الحدث, وهول الفاجعة, لم يعفهم الله من الشورى مرة تلو مرة, وآنا بعد آن, لقد خاطب الله رسوله (ﷺ) (بهذا النص الجازم:{ وشاورهم في الأمر }. . ليقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو الذي يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه . . أما شكل الشورى والوسيلة التي تتحقق بها فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها . وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى - لا مظهرها - فهي من الإسلام, لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهرياً وقوع خلل في وحدة الصف المسلم! ....ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج. فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التي رآها والتي يعرف مدى صدقها. وقد تأولها قتيلاً من أهل بيته وقتلى من صحابته وتأول المدينة درعاً حصينة . . وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى . . ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات . لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة, أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف; وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشىء أمة ويربيها ويعدها لقيادة البشرية. وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى; وأن تدرب على حمل التبعة وأن تخطىء - مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة - لتعرف كيف تصحح خطأها, وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها . فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ . . والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة . واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر في حياة الأمة ليس فيها شيء من الكسب لها إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية . إنها في هذه الحالة تتقي خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية . ولكنها تخسر نفسها, وتخسر وجودها, وتخسر تربيتها, وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية, كالطفل الذي يمنع من مزاولة المشي - مثلاً - لتوفير العثرات والخبطات . أو توفير الحذاء!, كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة . فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها, ويرفع عنها الوصاية في

[1] -الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي,بحث في مؤتمر تجديد الفكر الإسلامي: نحو مشروع حضاري, بدون تاريخ, د عبد العظيم الديب, ص: 6.

حركات حياتها العملية الواقعية؛ كي تدرب عليها في حياة الرسول (ﷺ) وبإشرافه, ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً وهي أمة ناشئة, تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون, لكان وجود محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعه الوحي من الله (سبحانه وتعالى) كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة . ولكن وجود محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يلغ هذا الحق؛ لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر ومهما يكن انقسام الصف ومهما تكن التضحيات المريرة, ومهما تكن الأخطار المحيطة؛ لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة ; المدركة لتبعات الرأي والعمل الواعية لنتائج الرأي والعمل . . ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات : { فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر }؛ ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله; وليثبت هذا القرار في حياة الأمة المسلمة أياً كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق; وليسقط الحجة الواهية التي تثار لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة, كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة, ولو كان هو انقسام الصف كما وقع في « أحد » والعدو على الأبواب . . لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ . ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق!)([1])

بتلك الصراحة والوضوح, والحسم والبيان, يقرر الإسلام قيمة الشورى, وضرورتها للأمة المسلمة, في سبيل نهضتها وشهودها,حتى لو كان الرسول بين ظهرانيها؛ فإن تدريبها عليها, سبيل نهضتها الحقيقي, وتقدمها الصحيح؛ لأنها ستملك إرادتها, ومن يملك إرادته يملك قراره, ويملك أن يكون مؤهلا للشهادة والحضور.

[1] - في ظلال القرآن: (1 / 477- 479).

المبحث الخامس

أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري ومنهجية القرآن في بيان ذلك

كلما كانت الأمة أملك لرأيها, وأقدر على اتخاذ قرارها, كلما كانت سياسة العمران والنهضة فيها مستقرة باذخة, قوية راسخة, تبني على علم, وتؤسس على فهم, وترسخ على أسس سليمة, فتتعمق الجذور, ويستطيل البناء, وتمضي على رؤية واضحة, وبصيرة واعية, وبينة باهرة.

والمتأمل للممالك التي عني القرآن بذكرها, والحديث عنها, يجد سببا أصيلا من أسباب النهضة فيها, في استمرارها واستقرارها, ونمائها وبقائها: **حرية الإنسان**, وقدرته على الصَدْع برأيه دون مواربة أو التواء, والجهر بما يجول بخاطره, دون خوف أو رياء, سواء كانت تلك الحرية حرية في التعبير أو التفكير, حرية في الحوار أو المشورة, حرية تعطي للفرد قدرة على التفكير, الحي, البنَّاء, الذي يمضي بحثا عن الحق, لا مشيا في ركاب الحاكم المستبد, وطلبا للنهوض, لا سعيا في إرضاء السيد الكبير, ولكم تفكرت في تلك الفترات التي زخرت فيها الحضارة الإسلامية بألوان العلوم والمعارف, وحفلت بصور الانفتاح على الآخر, انفتاحا يعلي من قيمة الإنسانية, ويَفيد مما لديها في جانب العلم والتقنية التي ليس لها وطن, بل وطنها من يكرمها, ويعلي قدرها, فوجدت أن من أعظم أسباب ذلك: جو الحرية الفسيح, الذي عاشت فيه الدولة تلك الفترة, وما حركة الترجمة عنا ببعيد.

وإذا تأملنا نماذج من تلك الحضارات التي عُني القرآن برصدها, ولفت إليها أنظار المسلمين, المطالَبين بالشهود الحضاري والمؤهلين به, وجدناه على النحو الآتي:

بلقيس وأثر الحرية في بناء حضارتها

إذا نظرنا إلى بلقيس, ملكة اليمن, وكيف كانت تعامل رعيتها, ومجلس شوراها ,عرفنا كيف يمكن لأمة تقوم على حرية الرأي أن تقيم حضارة, وتبني مجدا, وإن كان على غير منهاج صحيح يربط الناس بربهم, ويعلقهم بآخرتهم, لكن الذي يعنينا هنا أن نسلط الضوء على قيمة الحرية, وأثرها في بناء الحضارة, لقد رأينا بلقيس تتحاور مع قومها بصورة لافتة للنظر, من حيث العرض والطرح, وذكر المبررات والأسباب, والحرص عليها, في أخذ رأيهم, والإفادة من خبرتهم , وإعلاء قيمة الحرية لديهم بما يتيح لهم أن يشيروا عليها مطمئنين آمنين, لا خائفين ولا مراقبين: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(35)),النمل: 29- 35.

وحضارة تلك المملكة معروفة مشهودة, حتى قال عنها القرآن الكريم: (وأوتيت من كل شيء), وهذا ما لاحظه هدهد سليمان, ونقله إليه, (وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها, وتوافر أسباب الحضارة, والقوة والمتاع. { ولها عرش عظيم }. أي سرير ملك فخم ضخم, يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة.)([1])

لقد لفت النظر في الآيات وعي المرأة وتركيزها على نقاط لا يقف عليها إلا من خبر سنن الملوك وعاداتهم, وسبر طرائقهم ومسالكهم, كما لفت النظر في حديثها استشارتها لقومها, وهي من هي سلالة ملوك وتربية عز, حتى قال ابن عباس (رضي الله عنهما): يرحمها الله, عنها إن كانت لعاقلة في كفرها وإسلامها([2]).

لقد أبانت ملكة سبأ عن سر قوة مملكتها متمثلة في الشورى التي هي أساس الحرية الحقيقية, وبينت ذلك بطريقة دالة على اطرادها في مملكتها, وحفاظها على ذلك لعلمها أن الحرية سبب من أسباب قيام واستمرار الحضارة, وبقاء التقدم, بقولها: (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ), النمل: (32).

وأظهرت وعيها بمسالك الملوك, واستبدادهم, وغلبهم على حرية الشعوب, بما يكون سببا في انهيار الممالك وزوالها, وتهدم الحضارة واندثارها بقولها: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ), النمل: (34).

وهل هناك مذلة أكثر من ضياع الحريات, وفوت الإرادات, وأن يقول الإنسان ما لا يعتقد وأن يعتقد ما لا يقدر على البَوْح به ؟؟

فهي ترى: (أن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة وغلبة أفسدوها, وخربوها, وجعلوا أعزة أهلها أذلة, وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم, وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع، بقولها: (وكذلك يفعلون)([3])

إنها(تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساؤها, وجعلوهم أذلة؛ لأنهم عنصر المقاومة, وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه.)([4])

---

[1] - في ظلال القرآن: (5 / 380).

[2] -

[3] - جامع البيان:(13 / 224), والخازن: 144/5, زاد المسير: 6/ 168,والوجيز للواحدي:803/2.

[4] - في ظلال القرآن: (5 / 382), بتصرف يسير.

لقد عرفت المرأة الملكة فعل الملوك المستبدين من خلال التاريخ والواقع, فاستدلت من التاريخ بقولها: { إذا دخلوا قرية أفسدوها }, ومن الواقع بقولها: { وكذلك يفعلون }.

فهو(استدلال على المستقبل بحكم الماضي, على طريقة الاستصحاب,وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله:{ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها}.والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجَعْلِ الأعزة أذلة، أي فكيف نلقي بأيدينا إلى من لا يألو إفساداً في حالنا)([1])

ذو القرنين وأثر الحرية في بناء حضارته

وإذا انتقلنا إلى نموذج آخر من نماذج إقامة الحضارة, وعمارة الأرض, ذي القرنين, وجدنا ظهور قيمة الحرية في منهجيته, بصورة تؤكد لنا أساسيتها في بناء الحضارة, وأهميتها في استمرارها واستقرارها, وأي حضارة أرسخ, وأي مدنية أعظم من أن يصفها ويصف رائدها القرآن الكريم بقوله: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85), الكهف: 84, 85.

(والتمكين هاهنا الإقدار, وتمهيد الأسباب, يقال مكنه ومكن له كنصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له؛ ...والمعنى أنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار ، وقيل : تمكينه في الأرض من حيث إنه سخر له السحاب, ومد له في الأسباب, وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي ذلك أثر ولا أراه يصح، وقيل : تمكينه بالنبوة وإجراء المعجزات)([2])

وأي ضمان للحرية أكثر من أن يطبِق في من معه العدالة والمساواة, وهما من أسس توفير الحرية, وضمان استمرارها, وذلك في حديثه عن منهجية التعامل مع من ظلم ومن آمن, بقوله: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88), الكهف: 87, 88.

(لقد أثنى الله (تعالى) على جوابه بهذا العرض, وبين صلاح منهجه في الحكم ([3])

---

[1] - التحرير والتنوير: (21 / 41), ومراح لبيد:15/21, ومفاتيح الغيب: 24/ 166.

[2] - تفسير الألوسي: (11 / 391), والخازن: 229/4, والسراج المنير:316/2, وروح البيان:223/5, تيسير الكريم الرحمن, للسعدي:485/1.

[3] - التحرير والتنوير: (16 / 26), بتصرف.

ولم يكن ذو القرنين ملكا عاديا, بل كان ملكا ذكره التاريخ, وخلده القرآن, وتكفي إشارة القرآن إلى عظم أخباره بقوله (تعالى): (سنتلوا عليكم منه ذكر), يعني: طرفا من أخباره, وليس كل أخباره؛ فهي من الكثرة بمكان, وذلك ما لم يتكرر في قصص القرآن في قصة أخرى, والمتأمل لقصته يجد أنها تعطي صفات لا محيد عنها,(إحداها : أنه كان ملكا صالحا عادلا.الثانية : أنه كان ملهما من الله .الثالثة: أن ملكه شمل أقطارا شاسعة,الرابعة: أنه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.([1])

و هذا فيه من سعة الملك, واستقامة المنهاج, واستقرار الحضارة, وعمق التمكين ما فيه.

إن بيان ذي القرنين عن منهجيته في التعامل مع رعيته فيه من ضمان الحرية والعدالة ما يعد منهاجا يلفت حوله الحاكم والمحكوم,(إن قوله هذا يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة، وعلاقة الحاكم بالمحكومين, وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله. وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ([2]).

وإذا وجدت الحرية والعدالة, وجد معهما البناء والعمران, والتفكير والابتكار, عندما يجد الفرد في أمته ومجتمعه ثبات منهاج التعامل في الثواب والعقاب, والتكريم والتجريم, يدفعه ذلك بلا ريب إلى التفكير الحر, والإنتاج المفيد؛ لأنه يعلم أن جهده مشكور لا منكور, وأن عطاءه مأجور لا مأزور, وأن يدا باغية لن تحطم رأسه إذا فكر في أمر لا تعده العقول المستبدة من المألوف المعروف, كما حدث ذلك في أمم سخرت من العلم, واعتنقت الخرافة, وأسلمت قيادها لمجموعة من ضُلَّال الأحبار والرهبان,(وهذا الذي خطه ذو القرنين, هو دستور الحكم الصالح, فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير, والجزاء الحسن عند الحاكم, والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء, . . وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً, ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً, ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون, فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد, ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.)(3)

---

[1] - التحرير والتنوير: (16 / 20), اللباب في علوم الكتاب:(12 / 553), المحرر الوجيز:538/3, ابن زمنين: 78/3.

[2] - تفسير الشعراوي: (/ 579).

[3] - في ظلال القرآن: (5 / 79).

سليمان (عليه السلام) وأثر الحرية في بناء حضارته

رصد القرآن الكريم ملامح عن الحضارة في عهد سليمان **(عليه السلام)**, وعلاقة الحرية بتلك الحضارة في قوله (تعالى):

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

إن العصر الذي عاش فيه سليمان يعد العصر الذهبي لبني إسرائيل, والحضارة التي أقامها حضارة جمعت بين نور الوحي وسلطان العلم, وسخر الله له الجن والإنس والطير والريح, كما صور ذلك القرآن الكريم تصويرا بديعا, في مواطن متعددة, في سور: البقرة, النساء, الأنعام, الأنبياء, النمل, سبأ, ص, بعضها بتفصيل وبعضها بإشارة سريعة...

وهي حضارة قامت على قيم إنسانية راقية, ومعاني أخلاقية رائقة, ومما يعنينا هنا الوقوف على أثر الحرية في حضارة سليمان (عليه السلام), والآيات التي حوتها سورة النمل, والتي صدر بها الحديث عن حضارة سليمان, شملت ملامح الحرية التي عاش فيها الخلق في ظل هذه الحضارة, وليس أدل على ذلك من الحوار الدائر بين جندي صغير في تلك المملكة الحضارية النموذج, وبين رأس الدولة, وعماد المملكة, سليمان (عليه السلام), لقد وقف الهدهد أمامه ليفاجئه بهذا الاستهلال البديع اللافت للنظر, المسترعي للانتباه, الذي يقول فيه لرأس الدولة, النبي الملك: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين), فأي حرية تلك التي كانت توليها الدولة لأفرادها حتى يقول جندي كالهدهد لسليمان ما قال.

إن كلام الهدهد لسليمان حوى ثلاثة أوجه: (أحدها : بلغت ما لم تبلغه ، قاله قتادة . الثاني : علمت ما لم تعلمه ، قاله سفيان, الثالث: اطلعت على ما لم تطلع عليه ، قاله ابن عباس، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته ، ... وَجِئْتُكَ مِنَ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقين), أي: بخبر صحيح صدق)(1)

أما كيف بادر الهدهد سليمان بذلك, مع مكانة سليمان, وصغر الهدهد؛ فلأمور منها: شعوره بأنه ما دام على حق فلن يضيع رأيه, وعلمه بثبات المنهاج الذي يحكم به سليمان, فلا ظلم لبريء, ولا عدوان على صاحب رأي, ولا مصادرة لفكر, بل السلطان لدى الجميع هو البرهان الواضح, والحجة البينة,حتى نقل بعض المفسرين سؤال الهدهد لرسول سليمان, عندما حذره من مغبة غيابه, عن منطوق قول سليمان فقال: (أوَ ما استثنى؟ قال : بلى، قال : { أوْ لَيأتيني بسلطان مبين }, قال: قد نجوت

---

[1] - النكت والعيون: (4 / 202), وانظر تفسير ابن زمنين: (3 / 297).

إذا ..([1]), فانظر دلالة ذلك الاطمئنان من هذا الجندي إلى عدالة المنهاج, وسواسية التعامل, ووضوح القاعدة, حتى استراحت نفسه لما قاله, وتأكد من نجاته.!

(والسلطان المبين هنا يراد به وجهان: أحدهما : بحجة بينة .

الثاني : بعذر ظاهر، قاله قتادة.)([2])

يعني بحجة بينة واضحة أعذره بها (فإن قيل كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم؟ قيل له: تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا كان منه ذنب كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير, وأما الذبح فيجوز وإن لم يكن منه الذنب)([3])

وفي ترتيب هذا الجندي من جنود مملكة سليمان لطرح القضية, واختيار البداية بتلك الطريقة, وترتيب وقوفه بين يدي سليمان, يعطي دلالة على ما كان عليه هذا الجندي من وعي, وما نشأ فيه من حرية, تحمله على الصدع برأيه, ولو أمام أكبر رأس في الدولة, ما دام اتخذ السبيل الأمثل في طرح قضيته, وعرض رؤيته, وتحلى بأدب الخطاب, ولباقة العرض, فليس هناك من هو أصغر من يَنصح, وليس هناك من هو أكبر من أن يُنصح, (وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّغِيرَ يَقُولُ لِلْكَبِيرِ ، وَالْمُتَعَلِّمُ لِلْعَالِمِ : عِنْدِي مَا لَيْسَ عِنْدَك ، إذَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَتَيَقَّنَهُ)([4]), فتلك سمة من سمات الحضارة الناجحة عموما, وسمة من سمات الحضارات التي تقوم على أساس الوحي خصوصا, (وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده (عليه السلام), وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره, واستمالة قلبه نحو قبوله؛ فإن النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل, وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل، وأيد ذلك بقوله: { وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } حيث فسر إبهامه السابق نوع تفسير, وأراه (عليه السلام) أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير, والشأن الكبير, ووصفه بما وصفه)([5]).

إن جندي سليمان ما كان ليكلف نفسه عناء البعد, ويتحمل وعثاء السفر؛ بحثا عن أرض أخرى يرى فيها حال قوم يعبدون الشمس, ويسجدون لها من دون الله لينقل خبرهم إلى مليكه صاحب الرسالة والمملكة, لو كان خائفا على ضبطه متهما, أو

---

[1] - البحر المديد: (4 / 374), و تفسير ابن أبي حاتم للإمام الرازي: (10 / 71).

[2] - النكت والعيون: (4 / 202).

[3] - بحر العلوم (2 / 577).

[4] - أحكام القرآن لابن العربي: (6 / 209).

[5] - تفسير الألوسي: (14 / 449),وانظر: تفسير القرآن العظيم: (28 / 14).

تلفق له تهمة باطلة, أو يطارد في رزقه بحجة أنه وضع أنفه فيما لا يخصه, إن الرسالة في تلك المملكة واضحة للجميع, من أكبر فرد إلى أصغر فرد,والكل يسعى في منظومة متناغمة, ويعمل على هدف واحد, ويسعى إلى غاية واحدة, وهو آمن مطمئن, واثق مستبشر, يعلم حقية المنهاج الذي يحكم تلك الحضارة, ومصداقية الحكم الذي يطبق على الجميع, وفي مثل تلك البيئات تنهض الحضارات, وتنمو الفِكَر, وتثمر التجارب, وتتقدم الأمم, ويبذل كل فرد ما لديه؛ لأنه يصب في النهاية في صالح الجميع.

ولقد حفلت السنة النبوية المطهرة بصور من الحوار والنقاش بل المراجعة من بعض الصحابة للرسول (صلى الله عليه وسلم), تؤكد قيمة الحرية, والحوار مظهر من مظاهرها, وثمرة من ثمراتها, وأثر ذلك في النهضة والحضارة, وموقف عمر من مراجعة النبي في قضية دعهم يعملوا واضحة, (فعن أبى بكر قال : قال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اخرج فناد في الناس من شهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله وجبت له الجنة فخرجت فلقيني عمر فسألني فأخبرته فقال عمر ارجع إلى رسول الله -(ﷺ) قل له: دع الناس يعملون فإنى أخاف أن يتكلوا عليها فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال ما ردك فأخبرته بقول عمر, فقال: صدق عمر, فأمسكت)([1])

علاقة الحرية بالحوار وأثره في الشهود الحضاري

---

1 - جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي: (25 / 117)

والحوار مظهر من مظاهر الحرية, وسمة من سماتها, كما أنه سبب من أسباب قيام الحضارة على الوعي الذي هو أساس السعي, ولقد حفلت حضارة الإسلام بالحوار في أزهى عصورها, وكان ذلك سببا من أسباب سيادتها وتميزها,والمناظرات الفقهية والنحوية في بلاط الخلفاء والأمراء شأنها معروف ومعلوم, وتميز هذا الحوار بمساحات من الحرية أتاحت حتى لغير المسلمين أن يبنوا تلك الدولة, وأن يؤسسوا بعض نظمها, بل اعتمد بعض خلفاء المسلمين على غير المسلمين فيما تميزوا فيه من تقدم وعلم, (هذا الفقه الحواري الحضاري المفتوح هو الذي ساد الحياة العلمية والثقافية من حيث الردود الفقهية والمناظرات والمناقشات العلمية منذ زمن الخلفاء الراشدين المهديين والصحابة والتابعين لهم بإحسان والقرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية ، بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين غيرهم على السواء ، بل بين المسلمين بعضهم مع بعض أولى)([1]). .

.

وكان المجتمع المسلم مزيجا من الثقافات, والمعارف, ويحوي تعددية فكرية وعلمية كانت سببا من أسباب أن يؤمه الناس من بقاع الدنيا؛ لينهلوا من معينه, ويتربوا على أسسه ومناهجه.

حرية التفكير وأثرها في الشهود الحضاري

أولى الإسلام بمصدريه الأساسين: قرآنا وسنة التفكير عناية خاصة, إيماء إلى أن الفكر عماد الحضارات, ومؤسس العمران, وصانع قسمات المستقبل, وأن حضارة تقوم على المادة فقط, حضارة لا تدوم ولا تستقر, فضلا عن أن تثمر وتزدهر, فكثر في القرآن الكريم الدعوة إلى إعمال الفكر, واستثمار العقل, حتى عد الأستاذ العقاد التفكير فريضة إسلامية, ودعا الإسلام إلى النظر والسير في الأرض, واستثارة خيرها, والإفادة من مكنونها, وتعددت صور الحث على ذلك, ومتابعة مادة: فكر,ونظر, وتدبر, وسير, ونحوها في القرآن الكريم تقفنا على مدى عناية القرآن بالفكر ووسائله, لقد وجه القرآن الكريم العقل إلى المجال الخصب في بناء الحضارة, فنهاه عن التيه في عالم الغيب, الذي لا يملك مؤهلات البحث فيه, وفتح أمامه الميدان فسيحا واسعا في عالم الشهادة, ليعمر الأرض باسم الله, وسارت منهجيات القرآن الكريم على ذلك, فكثر فيه الحديث عن عالم الشهادة, بصورة لافتة للنظر, مع عدم إغفال عالم الغيب, كما حرر الإسلام العقل من فلسفات المدنيات السابقة, التي تقوم على إعادة الفكرة دون تجديدها, فتصبح كمن يطحن الماء في إناء, وعلمه كيف يقوم على الرصد والملاحظة, والتتبع والاستقراء والإحصاء, كما حرص على تحرير العقل من الخرافة والتقليد, والتبعية والاستغلال,(وأطلقه من كُبُوْلِه في شتَّى مناحي الحياة الإنسانية, حُراً طليقاً فعّالاً، فالتفكير في الإسلام عبادة ، وإني لأَرَى أنَّ كلَّ تنويرٍ أو إصلاحٍ حضاريّ يجب بَعْد أن يقوم أوَّلاً على الدين الصحيح ، وأن ينطلق من الفكر الصحيح, على يد المفكرين

[1] - الفرفور 17

من ذوي الفهم والإدراك، فهم حُكَماء الأمة وأئمة الفكر فيها ، وهم المؤتمنون على ماضي الأمة ، وحاضرها ومُستقبلِها ، وأجيالها وحضارتِها ، بَلْهَ على وُجُودِها ، وكلُّ نهضةٍ إصلاحية لا تقوم ولا تنطلق من الفكر العلمي الصحيح لا وُجُودَ لها ، ولئن وُجدت فلا بقاءَ لها.)([1])

وحث الإسلام الإنسان على الحرية في التفكير والتعبير, أمر طبيعي بدهي؛ لأن مهمة هذا الإنسان أن يكون خليفة عن الله في أرضه, يعمرها باسمه, ويحيها بوحيه, فلم يكبل الإسلام هذا الخليفة بشيء يحول بينه وبين انطلاقة الفكر, وحرية الإبداع بما يضيف للحضارة البشرية إضافات وإضافات.

وعلى هذا النمط من احترام الرأي وحرية الفكر يمضي تاريخنا, فنجد الأئمة أصحاب المذاهب المعروفة وغير المعروفة ينهون عن تقليدهم, أثر هذا عنهم جميعا بلسان المقال, ولسان الحال, ولقد عقد الإمام ابن القيم فصلا بعنوان: نهي الأئمة عن تقليدهم... وهذه دعوة صريحة للاجتهاد وعدم الوقوف على الرأي المحفوظ عن الأئمة الموروث عنهم, وهل هذا إلا التعدد ؟...وعن هذا المبدأ (الحوار), (والتعدد) نشأ في تراثنا ما سمي بعلم الخلاف, وهو علم يبحث عن مآخذ الأئمة ومثارات اختلافهم, ومواقع اجتهادهم, وعلم الجدل والمناظرة)([2])

وهذه المساحة من الحرية التي عاشتها الأمة الإسلامية في أزهى عصورها كانت سببا أصيلا من أسباب حضارتها وتميزها, وعاملا من عوامل إفادتها من غيرها, وتلك منهجية القرآن الكريم في بناء الإنسان السوي الصالح, القادر على خلافة الأرض وعمارة الكون والحياة.

لقد (كان طبيعياً لدين أهّل الإنسان لمنزلة الخليفة لله بما وهبة من عقل وإرادة وحرية أن لا يكبل هذه الطاقات، بل المناسب أن يطلقها ويحررها ويجتهد في تحريضها على الحركة والنشاط، مكتفياً بالتوجيه والتسديد، تاركاً له أمر تحديد مصيره, وتحمل مسؤوليته .وبلغ تقدير الإسلام فكر الإنسان وحريته اعتبار التفكير فريضة .كيف لا وقد أناط هذه الوظيفة مهمة التقرير في أخطر القضايا المصيرية، مثل مسألة المعتقد وما يتعلق به من مسالك وأعمال ومصائر؟ ولذلك لا تمل آيات الكتاب تبدأ وتعيد في التحريض على التفكير, وحرية الرأي وترشيد العقل وحمله على عدم اتباع الأوهام، والسير مع عامة الناس، واتباع الآباء والأجداد، وحجزه عن مذهبات العقل مثل المسكرات والمفترات، ومنعه من الخضوع لمختلف ضروب الاستبداد والتسلط(63)، ولقد كان لحرية الرأي في الحضارة الإسلامية دور كبير في الارتقاء بهذه الحضارة وازدهارها والدعوة إلى الإسلام والمحافظة عليه 64) (، وأكثر من ذلك كان لحرية الرأي مساهمة عظيمة في وحدة الأمة الإسلامية والنأي بها عن الحروب الدينية وحروب الإبادة والتطهير العرقي كما حصل في حضارات أخرى بسبب التعصب والانغلاق, واحتكار تمثيل المقدس , والنطق

---

[1] - الحرية الدينية, للفرفور:12.

[2] - الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي, د عبد العظيم الديب 25, 26.

باسمه كما فعلت اليهود والنصارى، على حين اعترف الإسلام بمبدأ التعدد الديني وجعل الاجتهاد متاحا لكل مسلم بقدر علمه.)([1])

علاقة الحرية بالتعددية وأثرها في الشهود الحضاري

وهذه الحرية التي أتاحها الإسلام للإنسان فتحت أمامه مجال الإفادة من الغير واسعا, كما فتحت المجال أمام هذا الغير واسعا كذلك؛ لأنها علمت المسلم أن الحكمة ضالته, أنى وجدها فهو أحق الناس بها, وأتاحت للآخر أن يضيف في هذه الحضارة حسب جهده وطاقته؛ لأنه يعلم أن تلك البلاد بلاده,حتى لو حكمت بغير معتقده هو, كما أتاحت للمسلم أن يفكر بطريقة غير توحدية,فلا يدور حول أفكار نفسه, بل يتعداها ويفيد من غيره فيها, فنشأ داخل الفهم الإسلامي نفسه تعددية محمودة, أثرت الحضارة, وساعدت على نموها وازدهارها,فنشأت مذاهب فكرية إسلامية متعددة في ظل الحضارة الإسلامية, محاطة بسياج الحرية,محمية بالأمان والاطمئنان ما دامت الحجة قبالة الحجة, وليس المدفع ولا البندقية, (وتلك المذاهب اتفقت في الأصول، ولكنها اختلفت في الفروع، نتيجة لما أباحه الإسلام من حرية أدّت بمؤسّسيها وعلمائها إلى أن يجتهدوا في استخراج الأحكام من مداركها، كل بحسب منهجه وظروفه الزمانية والمكانية، لينتهي إلى رأي تنامى ليصبح بمرور الأيام مذهبا قائما يختلف عن مذهب غيره فيما هو من مجال الاجتهاد، فليست المذهبية إذن إلا ثمرة من ثمرات الحرية الدينية كما جاءت في الشريعة الإسلامية.)([2])

لقد اعتبر الإسلام الإنسانية على تباعد أعصارها وترامي أمصارها أسرة واحد يفيد اللاحق من السابق, ويمهد اللاحق للسابق, لتتكامل دورات الحضارة الإنسانية على كل حال, فدعا(الإسلام إلى احتكاك الآراء وسعة الاطلاع وتنوع الثقافات، واعتبرها إرثاً إنسانياً مشتركاً بين الأمم ، وهذا ما جعل العرب في العصور الإسلامية الزاهرة يَقْبَسون من علوم الأمم السالفة والمعاصرة وثقافاتها المتنوعة ما يجدونه نافعاً وصالحاً لبناء أمتهم .)([3])

ومن أشد الدلائل صراحة على قبول قيمة الحرية وعلاقتها بالتعددية وأثر ذلك في الحضارة, إباحة الإسلام للمسلم زواج الكتابية, وحل طعام أهل الكتاب, وبيعهم وشرائهم ومعاملاتهم, بل إشراكهم في بعض مهام الدولة كما عاشت دول وحضارت إسلامية كثيرة هذا المعنى, وحركة الترجمة, وبلاط الأمراء في كثير من حواضر دولة الإسلام يشهد بذلك.

---

[1] - الحريات العامة, د الغنوشي 48.

[2] - الحرية الدينية للنجار: 16.

[3] - حرية التعبير الفرفور10 وانظر: الحرية الدينية بشاري11

.

المبحث السادس

غياب الحرية وعلاقته بالتراجع الحضاري للأمة المسلمة

إذا غابت الحرية عن أمة غاب عنها كل خير, وخلاها كل فضل, وودعها كل تقدم, على مستوى البناء والعمران, وعلى مستوى التعامل والخلق, وعلى مستوى الفكر والعلم, بل على مستوى مفردات العلم ذاته, إننا إذا طالعنا قصور الفقه الإسلامي, والفكر الإسلامي في جانب النظم الإسلامية, والحكم وإدارة الدولة, وعلاقة الحاكم بالمحكوم, والرعية بالراعي, وقضية الشورى, و أهي معلمة أو ملزمة, وضوابط تلك الشورى, وأسس بناء المجتمع السليم القائم على الحقوق والحريات, وغيرها من مفردات العلم والفكر, وجدنا بونا شاسعا, وفرقا واسعا بين مقاصد الإسلام وما يخدم تلك المفردات, وليس ذلك لقصور السابقين, بل لتراجع مساحة الحرية في عصور حكم فيها كثيرون باسم الدين, وهم بعيدون كلا أو جزءا عن منهاجه, خاصة إذا قارنا تلك المفردات بغيرها من أبواب الفقه الشخصية التي لا تتعلق بالحكم والسياسة, وإدارة الدولة ونظمها, فكأنه تضخم في جانب, وضمور شديد في جانب آخر, وما ذلك إلا لأثر فقدان الحرية وغيابها من ساحات العلم وانعدامها أحيانا من باحات الدولة.

لقد كان من أولويات القرآن في قصصه وعظاته, وعبره ودروسه الحديث عن حكم الفرد والاستبداد السياسي, فكما تحدث عن النماذج التي حكمت وعاشت الحرية وأعطتها لبلادها تحدث عن الطغيان السياسي, واستعباد الإنسان للإنسان, وحديث القرآن عن فرعون: **نموذج الحاكم المستبد**, فيه غُنية وكفاية, لبيان منهاج القرآن وموقفه من حكم الفرد والاستبداد السياسي, لقد ذكر القرآن الكريم فرعون صراحة أكثر من سبعين مرة([1]), وما ذلك إلا لما يوليه القرآن من نكران على الاستبداد والاستعباد الذي صار فرعون نموذجا له, تحدث عن طغيانه وفساده, وعن تكبره واستعلائه, وعن عتوه وجبروته, وعن إذلاله لرعيته, ونشره الفساد في البلاد؛ حرصا من القرآن كذلك على تبيين آثار الاستبداد على الفرد والأمة.

(إن استبداد الطغاة معروفة آثاره وأخطاره, والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية المحذرة منه, فأي سورة من سور القرآن الكريم تنبهك بشدة إلى الاستبداد والطغيان وآثارهما في تدمير الحضارات, وتراجع الأمم وتخريب الكون, وسنة رسول الله (ﷺ) ملأى بالتحذير من الاستبداد والطغيان ومقاومته, واستعمال كل الوسائل,واستنفار كل الطاقات لمنع أسبابه,... فالإسلام حقق للإنسانية الحرية في أسمى معانيها فهو لا يريد بشرا أذلاء تطحنهم الأهواء والشهوات, وتكبلهم الأوهام والخرافات, والتقاليد والعادات...بل يريد الإسلام بشرا أعزاء أحرارا أقوياء, يحثون الخطى إلى رب العباد, وهم متحررون من كل قيود العبودية للبشرية, يسيرون على

[1] -راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, مادة فرعون, للمرحوم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي.

درب الحياة بعزائم صلبة, يستنشقون عبير الحرية من السماء,فيعمرون الأرض بصفتهم خلفاء عن رب السماء, وليس بصفتهم عبيدا أذلاء)([1])

من آثار الاستبداد السياسي على الشهود الحضاري

المتأمل للاستبداد السياسي, وواقع الأمم المبتلاة به, يدرك أنه يؤثر تأثيرا واضحا على الحضارة والعمران, وعلى النهضة والشهود, ومن أبرز آثاره: الانكماش العلمي, وفقدان سلم الأولويات, والدوران في فلك الحاكم المستبد, وغياب الحرص على بناء الأمة.

لقد أثر الاستبداد السياسي علي فكر الأمة تأثيرا بليغا؛ فالانكماش العقلي لا يوجد إلا في جو الاستبداد, وانحراف الأفكار كذلك وخروجها عن طورها التي خلقها الله عليه لا يكون إلا في تيه ضغط الفرد الحاكم, وتسلطه علي أمته, إننا (عندما نبحث عن جراثيم الانحراف بين المتدينين نجد هذا اللون من الفرعنة وراء جملة من المسالك التي نشجبها ونضيق بأهلها فبعض الجماعات نبتتت أفكارها في السجون ونمت أشواكها بين القضبان، يوم استطاع رجل فرد أن يأمر باعتقال ثمانية عشر ألف في عشية واحدة, وأن يدخل الكآبة والذل علي ثمانية عشر ألف بيت من المسلمين)([2]). والاستبداد السياسي كما هو سبب من أسباب الانحراف الفكري والاعوجاج الشخصي فهو كذلك من أوائل أسباب الشلل الفكري علي حد تعبير أحد المفسرين المعاصرين, إذ يوضح هذا السبب وآثاره في إيقاف الفكر الإسلامي وتجميده عن التحرك والإنتاج فيقول: (والاستبداد السياسي في رأيي من أول أسباب الشلل الفكري عند المسلمين؛ إنه ليس هينا أن يسير الإنسان في الطريق خائفاً يترقب، فقد تهوي عصا علي أم رأسه تودي بحياته أو تناله صفعة علي قفاه تودي بكرامته أو يؤخذ بتلابيبه فيرمي في السجن لا يدري شيأً عن أهله وولده !!)([3]). ويوضح الشيخ (رحمه الله) حاجة الناس إلي الاستقرار والاطمئنان, من أجل الإنتاج والإبداع, ويضرب الأمثلة من القرآن الكريم لذلك فيقول (إن الحاجة إلي الاستقرار النفسي كالحاجة إلي القوت فإن الخليل إبراهيم-عليه السلام- يقدر حقوق الإنسان الأدبية والمادية عندما جأر قبل إنشاء مكة: (رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهلة من الثمرات), البقرة: من الآية 126 .. والجندي المأمور بضرب الناس لا يبالي أن يسحق تحت حذائه أكبر مخ في العالمين لأنه لا يفرق بين مخ ومخ, ولا يدري إلا أنه مكلف بالضرب إنه آلة بشرية في يد جبار)([4]). والاستقرار الأمني والنفسي والمعيشي من أسباب الإنتاج السليم والتفكير السليم والعطاء السليم, ويقارن الشيخ

---

[1] - د عبد المجيد النجار17

[2] -مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص 118 .

[3] -مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص 58 .

[4] -مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: ص33 .

الغزالي بين مكان توفر فيه هذا الاستقرار المتكامل وبين مكان فقد هذا الاستقرار ويذكر نتائج ذلك في نموذج معاصر فيقول: (هل تحسب أن الذكاء الياباني وحده وراء هذا النجاح الرائع كلا: إن الاستقرار النفسي والاجتماعي في طول البلاد وعرضها كان نعم العون في ذلك المضمار كأن الحكومة جسد روحه الشعب أو كأن الشعب جسد روحه الحكومة لا انشطار في عزم ولا اختلاف علي هدف ولا تحاقد علي منصب)([1]).

والضغط الاستبدادي لا يؤثر في الناحية العلمية المجردة فحسب, بل قد يؤثر في وعي علماء كثيرين, ممن يحملون الدعوة إلي الإسلام؛ فإن حديث كثير منهم عن أمر الشورى, وهل هي ملزمة أم معلمه ما يراه الشيخ الغزالي إلا من ضغط الاستبداد السياسي بل إنه يرى أن حديث بعض الفقهاء عن الصبر علي جور الحاكم ليس إلا من هذا الصدد فيقول: (بلغ التطير ببعض الفقهاء أن جعل الصبر علي جور الحاكم من شعب الإيمان ! وهذا كلام سقيم، وأخذه علي إطلاقه كان ذريعة لتنويم الشعوب علي ما ينزل بها من ضيم، حتى بلغ فسوق الملوك والحكام في بلاد الإسلام حداً لا يطاق. إن الفتوى بالتمرد علي الحاكم أو الاستكانة له تحتاج إلي بصر حديد، والحقيقة تضيع دائماً بين الإفراط والتفريط)([2]). والحكم الفردي سبب هذا الاضطراب الفقهي يقول الشيخ الغزالي- وهو من أبرز من عُنوا بقضايا الاستبداد وآثاره على الفرد والأمة: (أوجد الحكم الفردي فقهًا ليس له أصل ديني قائم وفقهاء لا يستحقون ذرة من ثقة وقد قرأت مشروع دستور وضعه واحد من هؤلاء فرأيت الخليفة المنتظر يستمتع بسلطات دونها بمراحل سلطات القيصر الأحمر في موسكو, وساكن البيت الأبيض في واشنطن, قلت وثيقة تضم إلي غيرها من القمامات الفكرية في حياتنا السياسية العابرة والحاضرة علي سواء)([3]).

بل إن نظرة من الفقهاء إلي الشورى بأنها غير ملزمة من جراء الضغط السياسي جعلها تختفي من مجتمعات إسلامية كبيرة وجعل أغلبية من قريش ومن غير قريش تسيء إلي دين الله إساءات بالغة وجعل كلمة: (وليت عليكم ولست بخيركم) غريبة علي الآذان, وقصة ذهبت في خبر كان, وجعلت فرعون وكسري وقيصر يعود إلي الحياة مرة أخرى وعلي رأسهم عمائم الإسلام, أيديهم وأقوالهم تُقَبَّل, وأوامرهم ونواهيهم تحني لها الهام)([4]). والحاكم المستبد يبارك هذا الفقه الأليف والإفتاء المستأنس ويغدق عليه .

إذكاء الخلافات العلمية التي لا تمس الحكم الفردي:

---

[1] -الطريق من هنا: ص33 .

[2]- ليس من الإسلام ، ص44 .

[3] -دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص 186 .

[4] راجع الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ص 140 محمد الغزالي بتصرف يسير.

ومن خصائص الاستبداد السياسي وآثاره كذلك, والتي يذكرها الغزالي إنماء الخلافات العلمية الفرعية, وإذكاء روح التناحر, فيما لا يمس السلطة الحاكمة, ليس ذلك لشيء إلا ليتيه الناس في هذه الجزئيات المبعثرة, والفروع ذات المسالك والدروب, ويبتعدوا عن الحديث المالي والإداري, وشئون الدولة, وقضايا الحكم, (فالسلطات المستبدة قديما وحديثا تسرها الخلافات العلمية التي لا تمسها: هل الشك ينقض الوضوء أم لا؟ هل رؤية الله في الآخرة ممكنة أم ممتنعة؟, هل قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي؟ إن حكام الجور يتمنون لو أن الجمهور غرق في هذه القضايا فلم يخرج, لكنه يشعر بضر بالغ عندما يقال: هل الدولة لخدمة فرد أم مبدأ؟ لماذا يكون المال دولة بين بعض الناس؟ ! هل يعيش الناس كما ولدوا أحرارا أم تستعبدهم سياط الفراعنة حينا, ولقمة الخبز حينا ! إن البدوي الذي خاطب الفرس في الفتح الأول قال لهم جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله الواحد كان هذا البدوي بفطرته الصادقة يعلم ما هي الحقائق الكبرى في المنهاج الإسلامي ففتح البصائر عليها)([1]). أما الحاكم الفردي فلا مكان للنقد عنده ولا للمناقشة الموضوعية الصادقة. وهل تبنى الحضارات وتقام الدول إلا على الرأي والرأي الآخر؟! لقد رأينا دولا تختار مستشاريها من مدارس فكرية مختلفة عن مدارس المسئولين فيها؛ رغبة في التعددية, وحرصا على البناء والإنماء,

- **رياء الحاشية** : إن الرياء في جو الحكم المطلق والاستبداد السياسي ينبت كما تنبت الديدان في أجساد الموتى؛ لأنه لا يقرب إلا من تمدح, ولا يدني إلا من يرائي, ولا ينظر إلا للعبيد الراضخين، يقول الغزالي عن ذلك: (وكما ينبت الشرك في أحضان الوثنية، ينبت الرياء في أحضان الكبر, وحيث يوجد السادة المتكبرون يوجد الأتباع المتملقون والأشياع والمراءون، وجو الحكم المطلق احتل الأجواء بجماهير العبيد الراضخين للهون عن طواعية أو كراهية, وفي الحرب التي شنها القرآن الكريم علي هذه المجتمعات المظلمة نرى الهجوم يتتابع علي مبدأ السيادة والتبعية, وعلي ما يلحق هذا الجو من إلغاء للعقول والضمائر)([2]).

الفصل بين الجانب العلمي والجانب العملي في الإسلام

ومن الآثار المرة للاستبداد السياسي أنه جعل تعاليم الإسلام تسير في ناحية وكثيراً من أعمال المسلمين تسير في ناحية أخري, ولاشك أن جو الاستبداد السياسي لا يسمح بأي فرجة من حرية يمارس المسلمون فيها حياتهم الحقيقية؛ فمصلحوهم يرون الأخطار محدقة, ويرفعون أصواتهم بالتحذير, ولكن الاستبداد السياسي الذي لا يرى إلا شخصه, لا يسمع كذلك إلا صوته (فمن البلاء أن

---

1 السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص13 .

[2] - الإسلام والاستبداد السياسي ص 38.

يكون الرأي لمن يملكه لا لمن يبصره، منذ أمد بعيد وأحوالنا تجري علي هذا النحو, مصلحون يرون الأخطار, ويرفعون عقائرهم بالتحذير منها, وعميان يقودون القافلة بسلطات مبهمة إلي هذه الأخطار نفسها)([1].) المصلحون ينادون: الأمة في خطر, والحاكم المستبد يحدوها إلي هذا الخطر, ومن هنا ثبط الهمم عند الكثيرين في الإصلاح خاصة، والإصلاح السياسي وإدارة الحكم عامة, (واشتغل المسلمون بألوان من الترف العقلي وعكفوا علي البحوث الفلسفية والنظرية والفرعية ممالا يضير الحكام المستبدين أن تؤلف فيه المجلدات الضخام)([2]).

[1] -السابق، ص132.

[2] -الإسلام والمناهج الاشتراكية، ص97.

حصر العلوم في مسارات محددة بعيدة عن كل ما يخص الحاكم والحكم

ومن بلاء الاستبداد وآثار غياب الحرية أن (الطَّاغية يُكره النَّاس على تعلم نوع خاص من المعارف.)[1], ذلك أنه يريد منهم أن يذوبوا في فرعيات لا نهاية لها, وجدليات فلسفية لا تنتهي؛ حتى يضمن استقرار عرشه وحكمه, فلا يتطلع إلى نهضة, ولا يفكر في بناء ولا عمران,

طبع الأمة بطابع الاستخذاء والسكون الذي لا يكون معه نهوض ولا حضارة

ومن آثار غياب الحرية وظهور الاستبداد, طبع الأمة بطابع الاستخذاء والسكون, والخفة العقلية والعلمية, وتربيتهم على الرضا بالدون فلا يطمحون في غاية, ولا ينشطون لهدف, حتى يكون همهم من (الدنيا) لقمة طرية, ونومة هنية وثوب قشيب, وهم لا يدركون أن للذل ضريبة, أبسطها وأيسرها أنهم لا يتمتعون بتلك الأماني التي يحلمون بها, ويتطلعون إليها, لقد (وصف القرآن رعية الطَّاغية بأوصاف كثيرة من؛ الخوف والفسق والظُّلم والطُّغيان والخفة والإجرام، مما يبين أنها قابلة لتقبل الطُّغيان فلولا اتصافها بتلك الصفات لما تمكن الحاكم من الطُّغيان عليها والتسلط على رقابها.)[2]

وهل تتمكن أمة بها تلك الصفات السلبية من بناء حضارة,وإقامة عمران, وريادة الدنيا, إنها ستكون من خوف الذل في ذل, ومن خوف الفقر في فقر, ومن خوف الموت في موت, والواقع المعيش الذي نراه في عالم الحياة خير دليل على هذا.

إن الدولة إذا أنشبت برعاياها مخالب الاستبداد, نزلت عن شامخ عزها لا محالة, وأشرفت على حضيض التلاشي والفناء؛ إذ لا غنى لحكومة عن رجال تستضيء بآرائهم في مشكلاتها, وآخرين تثق بكفاءتهم وعدالتهم إذا فوضت إلى عهدتم بعض مهماتها,والأرض التي اندرست فيها أطلال الحرية إنما تؤوي الضعفاء والسفلة, ولا تنبت العظماء من الرجال إلا في القليل, قال صاحب لامية العرب:

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول

فلا جرم أن تتألف أعضاء الحكومة وأعوانها من أناس يخادعونها ولا يبذلون لها النصيحة في أعمالهم, وآخرين مقرنين في أصفاد الجهالة يديرون أمورها على حد ما تدركه أبصارهم, وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الأمة, فلا تلبث أن تلتهمها دولة أخرى وتجعلها في قبضة قهرها, وذلك جزاء الظالمين, ثم إن الاستبداد مما يطبع نفوس الرعية على الرهبة والجبن, و يميت ما في قوتها من البأس والبسالة,

فمن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

---

[1] - الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني,د عبد الرحمن عمر اسبنداري: 373

[2] - السابق 374

فإذا اتخذت الدولة منهم حامية أو ألفت منهم كتيبة عجزوا عن سد ثغورها, وشلت أيديهم من قبل أن يشدوا بعضها.

وإن أردت مثلا يثبت فؤادك ويؤيد شهادة العيان فاعتبر بما قصه الله (تعالى) عن قوم موسى (عليه السلام) لما أمرهم بالدخول للأرض المقدسة وملكها كيف قعد بهم الخوف عن الطاعة والامتثال, وقالوا: إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخله حتى يخرجوا منها, فمتى جئت تسأل عن الأمر الذي طبع في قلوبهم الجبن وتطوح بهم في العصيان والمنازعة إلى قولهم: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وجدته خلق الانقياد المتمكن في نفوسهم من يوم كانت الأقباط ماسكة بنواصيهم وتذيقهم من سوء الاستعباد عذابا أليما.

والأمة مفتقرة إلى الكاتب والشاعر والخطيب, والاستبداد يعقد ألسنتهم على ما في طيها من الفصاحة, وينفث فيها لكنة وعيا, فتلتحق لغتهم بأصوات الحيوانات ولا يكادون يفقهون قولا.

وإذا أضاءت على الأمة شموس الحرية وضربت بأشعتها في كل واد اتسعت آمالهم وكبرت هممهم وتربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة, ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم فتتفتق القرائح فهما وترتوي العقول علما, وتأخذ الأنظار فسحة ترمى فيها إلى غايات بعيدة فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية,ولا ينحرفون عن طرق سياستها العادلة.

والحرية تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة, فإذا نظمت الحكومة منهم جندا استماتوا تحت رايتها مدافعة ,ولا يرون القتل سبة إذا ما رآه الناكسو رؤسهم تحت راية الاستبداد....

و من مآثر الاستعباد ما تتجشأ بها اللها وتسيل به الأقلام من صديد الكلمات التي يفتضح لك من طلاوتها أنها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلة وتثر صغارا نحو(مقبل أعتابكم), (المتشرف بخدمتكم) (عبد نعمتكم)ووما أخال أحدا يصغي إلى قول أحد كبراء الشعراء:

وما أنا إلا عبد نعمتك التي نسبت إليها دون أهلي ومعشري

إلا ويمثل في مرآة فكره شخصا ضئيلا يحمل في صدره قلبا يوشك أن ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة.

ومن سوء عاقبة الخضوع في المقال أنه يوسم الرجل بلقب وضيع ينحته له الناس من بعض أقوال له أفرغ فيها كثبة من التذلل وبذل الهمة,كما سموا رجلا باسم: عائد الكلب؛ لقوله:

إني مرضت فلم يعدني عائد منكم ويمرض كلبكم فأعود

... إن الحقوق في دولة الحريات تؤخذ بصفة الاستحقاق, وفي دولة الاستبداد تؤخذ بصفة الاستعطاف.)([1])

إن الاستبداد خطيرة آثاره, مدمرة أضراره على مستوى الفرد والمجتمع, وعلى مستوى الأمم و والشعوب؛ لما يطبع به الفرد من تلك الصفات التي رأيناها, وما الأمم إلا مجموع الأفراد, إذا صلحوا صلحت وإذا فسدوا فسدت, وستظل علاقة الحرية بالحضارة متينة قوية وجودا وعدما, وغيجابا وسلبا, مطردة لا تتخلف, باقية لا تغيب؛ كأنها من سنن الله الماضية, ونواميسه التي لا تتخلف.

[1] - الحرية في الإسلام: 71- 74 بتصرف واختيار.

الخاتمة, أسأل الله حسنها

وفيها أهم النتائج والتوصيات

وبعد تلك الرحلة مع قيمة من قيم الإنسانية السوية في ضوء عطاءات القرآن الكريم ومفاهيمه الخالدة: قيمة **الحرية وأثرها في الشهود الحضاري للأمة المسلمة**, يمكننا أن نقول في اطمئنان:

1- إن الحرية الحقيقة هي أساس النهضات ودعامة التقدم والرقي؛ فلا تقوم حضارة حقيقية إلا في مساحة من الحرية, وجو من التعددية وروح من إدراك قيمة القاسم المشترك بين الإنسانية.

2- أن معاني الحرية دارت في اللغة على الانفكاك من القيدو, أنى كان نوعها وحيثما وجدت, والقيود الحقيقة هي ما تحول بين الإنسان والفكر والعمل لا الضوابط التي تميزه عن غيره من السوائب الشاردة.

3- أن القرآن الكريم عُني عناية خاصة بقيمة الحرية, وذكرها بلفظها صراحة مرات متعددة, ونبه إليها فيما يزيد على مائتي مرة في مواطن متعددة ومقامات متباينة حرصا على إبرازها وتأكيدا لمكانتها.

4- أن القرآن الكريم تميز بمنهج فريد في غرس قيمة الحرية في نفوس الناس عموما وأتباعه خصوصا,من حيث التأكيد عليها,ومعاملة الناس على أساسها,ودعوة الرسل والأنبياء للتحلي بها, وبيان العلاقة بينها وبين النهوض والشهود, فدعا إلى إعمال العقل والسير في الأرض, والحوار والشورى حتى في أحرج اللحظات وأدق المواقف, ومن حيث تعامله مع السامع بأدلة إقناعية عقلية منطقية, ومن حيث حملته الواضحة على الاستبداد والاستعباد, وحكم الفرد المطلق, والفرعنة التي صارت نموذجا لحكم الفرد.

5- كما ربط القرآن الكريم بين الحرية والشهود الحضاري, وعني بذلك عناية واضحة, وذلك من خلال تأكيد قيمة الشهود الحضاري للأمة المسلمة, بيان أن تلك مهمة من مهماتها؛ تكليفا لا تشريفا, وأن الحرية سبب أصيل في هذا الشهود, ومعلم أساس من معالمه, لا يتم الشهود بدونها,ولا يتحقق بفقدها.

6- كما أبان القرآن الكريم عوامل ذلك الشهود, وربط بينتها وبين الحرية, في صورة بديعة لافتة للنظر مسترعية للانتباه.

7- كما بان من تلك الدراسة كيف حرص الأنبياء على غرس قيمة الحرية في نفوس أتباعهم ,وكيف حرص رسول الإسلام على غرسها وتربية

المسلمين عليها,وذلك من خلال الحوار, والتربية على الشورى ؛ نزولا على مفاهيم القرآن الكريم, واتباعا لهديه في بناء إنسان الشهود.

8- كما بان جليا أثر الحرية في بناء الحضارة والشهود الحضاري للأمة المسلمة, فرصد نماذج الحضارات السامقة, وأبان عن العلاقة بي قيام تلك الحضارة ووجود الحرية, وبين كيف قامت ممالك على استعباد الإنسان, وأثر ذلك في تأخرها حضاريا, وإن تقدمت علميا, بل جعل القرآن نموذجا من نماذج تلك الأمم المستبدة علما على الاستبداد, إذا ذكر لاح في الذهن معاني القهر والاستبداد, والذل والاستعباد, وهو نموذج الطغيان السياسي (فرعون), وكيف هضم ذلك الاستعباد الرعية جندا, وشعبا,وقيما ودينا,وعقيدة, وسلوكا, وأي شيء تبقى من الحضارة بعد فقد ذلك؟

9- وتخلص تلك الدراسة إلى تأكيد مدى حاجة البشرية إلى الحرية, وتوصي القارئ والمتأمل بالتمسك بها والحرص على غرسها في بنيه ومن حوله, ممن يجب عليه نصحهم وتربيتهم, وممن هم من رعيته.

10- كما توصي الدراسة المؤسسات المسؤولة بالأخذ بعين الاعتبار بقيمة الحرية والحرص عليها سواء كانت تلك المؤسسات تعليمية أم تربوية أم تنفيذية حتى تنهض الأمة وتلاحق بل تسابق الأمم التي قطعت شوطا بعيدا في سبيل النهوض والارتقاء.

11- أن كل راع مسئول مسؤولية شرعية عن إتاحة الحرية لمن يرعاهم, فهي ليست منحة من أحد, ولا منة من إنسان, بل هي حق لكل إنسان بل تصل لأن تكون واجبا من الواجبات المتحتمة عليه أن يمارسها فهي جزء من إنسانيته ولا تنفك عنه.

12- أن تعنى خطاباتنا العلمية والدعوية بغرس قيمة الحرية في نفوس الناس, وتأكيد أن مهمة الأمة الإسلامية أستاذية العالم وأن تكون قيمة عليه من خلال تحملها تبعة الرسالة الخاتمة, ومن خلال تأهلها بعوامل الشهود الحضاري.

فهرس المراجع والمصادر

1- أبحاث في القمة / للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي, رحمه الله.
2- الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ), المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم,الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب,الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.
3- أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ),تحقيق: محمد باسل عيون السود,الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان,الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
4- الإسلام والمناهج الاشتراكية, للعلامة محمد الغزالي,ط نهضة مصر,
5- الإسلام والاستبداد السياسي, للعلامة الشيخ محمد الغزالي, ط: نهضة مصر ط: السادسة 2005م.
6- الإسلام والأوضاع الاقتصادية.
7- الأمة الوسط والشهود الحضاري, د عبد المجيد النجار, ضمن مجموعة بحوث للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
8- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ),المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي,الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت,الطبعة: الأولى 1418 هـ
9- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري,الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية,الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م.
10- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ).
11- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ),المحقق: صدقي محمد جميل,الناشر: دار الفكر – بيروت, الطبعة: 1420 هـ.
12- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة , لحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ),المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان, الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة,الطبعة: 1419 هـ.
13- البرهان في علوم القرآن: المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ),المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم,الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م,الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

14- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ),المحقق: محمد علي النجار,الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
15- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى 1393هـ), الناشر: الدار التونسية للنشر– تونس, سنة النشر: 1984 هـ
16- التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الإبياري, دار الكتاب العربي بيروت,ط:أولى, 1405هـ, 166/1.
17- تفسير ابن أبي حاتم, ابن أبي حاتم الرازي,مصدر الكتاب : ملفات وورد على ملتقى أهل الحديث.
18- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ),الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
19- تفسير الشعراوي,الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ),الناشر: مطابع أخبار اليوم, (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997 م).
20- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار), محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: 1354هـ).
21- تفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: 399هـ),المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز,الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة,الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م
22- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ), المحقق: سامي بن محمد سلامة,الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع,الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.
23- تفسير الماوردي = النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ),المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم,الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
24- تفسير النسفى, أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي, دار النشر : دار النفائس ـ بيروت 2005, تحقيق الشيخ : مروان محمد الشعار.
25- تلبيس مردود في قضايا حية، لمعالي الشيخ: د. صالح بن عبد الله بن حميد.

26- تنظيم الإسلام للمجتمع,للعلامة الإمام محمد أبي زهرة,ط: دار الفكر العربي, بدون تاريخ.
27- تهذيب اللغة, المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ),المحقق: محمد عوض مرعب,الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت,الطبعة: الأولى، 2001م
28- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ),المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق,الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م.
29- جامع الأحاديث, جلال الدين السيوطي.
30- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ),المحقق: أحمد محمد شاكر,الناشر: مؤسسة الرسالة,الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م
31- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري,المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي,المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر,الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي),الطبعة: الأولى، 1422هـ.
32- الجامع لأحكام القرآن, تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671هـ),ت حقيق : أحمد البردوني إبراهيم أطفيش,الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة,الطبعة : الثانية ، 1384هـ - 1964 م,
33- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي,المتوفى: 875هـ), المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود,الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت,الطبعة:الأولى 1418 هـ.
34- الحريات العامة للأستاذ راشد الغنوشي, بدون.
35- حرية التعبير عن الرأي, د إسماعيل الحسني, بحث مقدم لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامي الدورة التاسعة عشرة.
36- حرية التعبير عن الرأي, محمد صالح الفرفور: ضمن مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشر بعنوان: مناهج الحرية في الحضارة الإسلامية.
37- الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية أبعادها ضوابطها, أ.د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل, ضمن بحوث منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشرة.

38- الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية أبعادها وضوابطها د عبد المجيد النجار, ضمن بحوث مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشر.
39- الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية, أبعادها وضوابطها, بحث د. محمد بشاري, مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي الدورة التاسعة عشرة.
40- الحرية في الإسلام, للعلامة محمد الخضر حسين, دار الاعتصام بدون تاريخ.
41- الحضارة ,دراسة في أصول وعوامل قيامها, سلسلة عالم المعرفة, العدد الأول, د حسين مؤنس.
42- الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية, د رحيل محمد غرايبة, دار المنار للنشر والتوزيع,ط: أولى, 1421هـ , 2001م.
43- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص 186 محمد الغزالي.
44- ديوان الشنفرى, عمرو بن مالك, ت: د اميل بديع يعقوب, ط:دار الكتاب العربي بيروت لبنان,ط: الثانية,1996/1417.
45- ديوان المتنبي ط: دار الزهراء, بيروت لبنان, عناية د عبد الوهاب عزام رحمه الله.
46- ديوان سحيم: عبد بني الحسحاس, ت: عبد العزيز الميمني, ط: دار الكتب المصرية, 1369هـ/ 1950م.
47- ديوان عمرو بن كلثوم, جمعه وحققه وشرحه د اميل بديع يعقوب, ط: دار الكتاب العربي, ط: أولى, 1411هـ 1991م.
48- روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ),الناشر: دار الفكر – بيروت.
49- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي.
50- زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ),المحقق: عبد الرزاق المهدي,الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت,الطبعة: الأولى - 1422 هـ
51- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث, للعلامة محمد الغزالي,ط: الشروق, ط: الثالثة 1989م.
52- سنن ابن ماجه,المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ), تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي,الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
53- سنن البيهقي الكبرى, أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي, الناشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، 1414 – 1994, تحقيق : محمد عبد القادر عطا.

54- سنن الترمذي,المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ),تحقيق وتعليق:,أحمد محمد شاكر وآخرين الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر,الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م.
55- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ),تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار,الناشر: دار العلم للملايين – بيروت,الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
56- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان, المؤلف : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي, الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت, الطبعة الثانية ، 1414 – 1993, تحقيق : شعيب الأرنؤوط .
57- الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني,د عبد الرحمن عمر اسبنداري, بدون.
58- العين, الخليل بن أحمد, مصدر الكتاب : موقع الوراق.
59- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ),المحقق: الشيخ زكريا عميرات,الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت, الطبعة: الأولى - 1416 هـ.
60- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا للعلامة محمد الغزالي,ط: الشروق, ط: الأولى, 1418هـ 1998م.
61- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ), حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم, الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
62- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ), الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة, الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ
63- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ),الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت,الطبعة: الثالثة - 1407 هـ, الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت 683) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعى].
64- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفى سنه 975, ضبطه وفسر غريبه صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ بكري حياني الشيخ صفوة السقا مؤسسة الرسالة.
65- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال, للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفى سنه 975, ضبطه وفسر غريبه وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ بكري حياني, الشيخ صفوة السقا مؤسسة الرسالة.

66- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ),المحقق: تصحيح محمد علي شاهين,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت,الطبعة: الأولى - 1415 هـ
67- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ),المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض,الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان,الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.
68- لطائف الإشارات, تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ),المحقق: إبراهيم بسيوني,الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر,الطبعة: الثالثة.
69- مجمل اللغة لابن فارس,المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ),دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان,دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت,الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م
70- محاسن التأويل:المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ),المحقق: محمد باسل عيون السود,الناشر: دار الكتب العلمية, بيروت,الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
71- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ),المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت,الطبعة: الأولى1422 هـ.
72- محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب, يوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرد (المتوفى : 909هـ),المحقق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن, الناشر : عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية, الطبعة : الأولى، 1420هـ/2000 م
73- المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 458هـ),المحقق: خليل إبراهيم جفال,الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت,الطبعة: الأولى، 1417هـ 1996م.
74- المدخل إلى التفسير الموضوعي, لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية, ط الثانية, 1411 هـ,1991م.
75- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: 1316هـ),المحقق: محمد أمين الصناوي,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت,الطبعة: الأولى - 1417 هـ.

76- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي السورة طهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ),تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت,الطبعة: الأولى، 1411 – 1990.
77- مسند ابن أبي شيبة: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: 235هـ),المحقق: عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي,الناشر: دار الوطن – الرياض,الطبعة: الأولى، 1997م.
78- مسند ابي داود الطيالسي للحافظ الكبير سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري الشهير بأبي داود الطيالسي المتوفى سنة 204 هجرية, طبعة مزيدة بفهارس للأحاديث النبوية الشريفة دار الحديث بيروت - لبنان
79- مسند أبي يعلى ,المؤلف : أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي,الناشر : دار المأمون للتراث – دمشق, الطبعة الأولى ، 1404 – 1984, تحقيق : حسين سليم أسد.
80- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ), المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين,الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة,الطبعة: الأولى، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م)
81- معالم التنزيل في تفسير القرآن: لمحيي السنة ، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : 510هـ),المحقق : عبد الرزاق المهدي,الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت,الطبعة : الأولى، 1420 هـ.
82- معجم مقاييس اللغة,المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ),المحقق: عبد السلام محمد هارون,الناشر: دار الفكر,عام النشر: 1399هـ - 1979م.
83- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ),الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت,الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
84- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ),المحقق: صفوان عدنان الداودي,الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت,الطبعة: الأولى - 1412 هـ.
85- مفهوم الحرية, دراسة تأصيلية, بحث تكميلي لمرحة الماجستير, علي أحمد فقيهي جامعة الإمام محمد بن سعود, كلية الشريعة, قسم الثقافة الإسلامية, لعام 1431, 1432هـ.

86- مقاصد الشريعة ومكارمها, ط: دار الغرب الإسلامي, ط: الخامسة, لعلال الفاسي.
87- مقاصد الشريعة الإسلامية,ت: محمد الطاهر الميساوي, ط: دار النفائس , الأردن,ط: الثانية, 1421هـ , 2001م.
88- من هنا نعلم، للعلامة محمد الغزالي, ط: نهضة مصر, ط أولى, 1997م.
89- مناهج الحرية في الحضارة الإسلامية, د. محمد عبد اللطيف صالح الفرفور بحث مقدم إلى منظمة المؤتمر الإسلامي الدورة التاسعة عشرة.
90- مناهج الحرية في الحضارة الإسلامية, د. محمد عبد اللطيف صالح الفرفور بحث مقدم إلى منظمة المؤتمر الإسلامي الدورة التاسعة عشرة .
91- موسوعة أصول الفكر الساسي والاجتماعي والاقتصادي من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين, د خديجة النبراوي, ط: دار السلام,ط: أولى, 1424هـ 1991م.
92- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون,محمد علي التهانوي, تقديم وإشراف رفيق العجم,مكتبة لبنان ناشرون,ط: أولى, 1996.الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب, سنة النشر : 1990 م.
93- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي،النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ),تحقيق: صفوان عدنان داوودي, دار النشر: دار القلم , الدار الشامية - دمشق، بيروت,الطبعة:الأولى،1415 هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	2
المبحث الأول: مفهوم الحرية ومفردات القرآن الكريم في التعبير عنها.	7
المبحث الثاني: مفهوم الشهود الحضاري للأمة المسلمة وعوامله وبيان القرآن الكريم في التعبير عنه.	24
المبحث الثالث: منهجية القرآن الكريم في بيان الحرية وغرسها في نفس الإنسان, والعلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.	36
المبحث الرابع: نماذج من إعلاء الحرية في تعامل الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم.	50
المبحث الخامس: أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري للأمة المسلمة.	61
المبحث السادس: أثر فقدان الحرية على النهضة والشهود الحضاري.	74
الخاتمة, أسأل الله حسنها	84
فهرس المصادر والمراجع	87
فهرس الموضوعات	97